المجلس الأعلى للثقافة

الرجال يمشون على الأقدام



فتحي محمد فضل

اهـــــــداء2004
الهـيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

الرجال يمشون على الأقدام

تأليف
فتحي محمد فضل

في الغروب ·· تسير السحب حزينة ·· تتخضب بحمرة الشفق ··

قرص الشمس الأحمر يسكب دمويته ·· يصبغ كل الأشياء ·· يستلقى على السواتر الترابية والدشم والحصون ·· ويختلط بماء القناة الأزرق ··

في احدى الحفر يقبع انسان ·· يحرقه شعور خاص بأنه يحيا في قبر ·· فوق رأسه يمرق طائر أبيض ·· يتجه ناحية الشرق في طيران متعثر ·· ثم يعود ·· يصرخ ويضرب التيه بجناحيه··

ترتفع من صدره آهة ·· تنسل من الأغوار كسكين منغرس يمزق اللحم ··

كان يتأمل الأشياء ·· يحس في صدره بنارية الألم ·· وترتفع كثبان التراب على الجانب الآخر ·· وفضاء عريض تدوسه أقدام همجية ··

يهمس في نفسه : متى تختلط حبات الرمل ببقع الدم ·· وينداح على الأرض الشرقية ··

وتتهاوى الكثبان ·· ويعـــلو دخان كثيف من الحصـــون والدشم ·· وينهار جدار الخوف ؟ ··
متى ·· ؟ ··

أم تسقط قطرات اليأس كالندى مع كل صبح ·· وتصبح الحياة بلا حاضر ·· وبلا غد ·· والأيام باهتة كانسان بلا هوية ؟

كيف تصبح الحياة فى البلد ؟ ..

تظل وجوه بعيدة مدفونة في جوف الأرض .. يتمدد العار على القسمات القـديمة .. ويوغل فى التجـاعيد والثنيات .. وتصبح قامة الهرم بلهاء ..

حتما .. سيضحك جيل لاحق ويقهقه .. فالزمن تيـار فكرى متصل ..

يقول الجيل الآخر : خافوا من الموت .. تتحول ضحكته الى نحيب .. وينظر الى الوراء فى سخط ..

آه .. تنهد .. يجتاحه شعور بالراحة .. منذ القدم والبلد يغلى كالأتون .. ولكن فى صـمت .. أيام هادئة يفـكر فيهـا الانسان ..

بالليل يجلس الفلاح فى القمراية ، يبث فى قصبة الغاب مزق الصدر ، وألم الصبر .. ينساب النغم على الأرض السمراء والخضرة .. ويمرق فى زرقة السماء حيث القمر الطفل ..

واذا سقط خيط الصبح الأبيض ، تلتف الأصابع البنية على يد الفأس .. تنهال على وجه الأرض توقظها من الموت .. تهدم الشيخوخة والتجاعيد ..

نفس الأصابع التى تحتضن الليل بالنغم الحزين كالروح ..

هكذا الانسان فى بر مصر ..

هناك فى القرية يعرفون العار ويعرفون الشرف .

وفى الصعيد الجوانى يعرفون الثـــأر ..

عم بسيونى الفلاح العجوز ، يضرب كفا بكف .. تخرج كلماته حبلى بالغيظ :

ـ كيف ننهزم يا عالم ؟ ..

تختنق الكلمات فى العنق المغضن .. تنفر العروق الزرق فى ضيق العينين .. يسكن ندى الدموع الرقيق ، ويختلط الوجه بحمرة الغضب ..

فى المدينة .. تحت ضوء المصابيح الكهربية ، يقول الرجال نفس الكلمات :

ـ كيف ننهزم يا عالم ؟

فى أمسية الحزن ، يطرق الأب فوق حصيرة الصلاة ، ويعبث فى لحيته الرمادية :

ـ اللهم لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه .. وتصعد من الصدر زفرة مغموسة بالألم ..

فى ليل القمر ينتحب صديقه أحمد حمادة .. وينتحب الكل فى مبنى منظمة الشباب .. حتى محمد شعبان عامل البوفيه ـ الفتوة القديم ـ انتحب وبكى بحرقة ..

تجرى الأحداث .. تهدر بلا منطق .. تنحدر من قمة جبل كشلال يختال بالعنف .. فى غمضة عين تتغير أشياء .. تسقط فى العيون حقيقة مناقضة تماما .. يتمزق فكر قديم .. والعقيدة الراسخة تصبح هشة .. ويستعرى العفن ..

هنا تكون الصدمة قوية .. مذهلة .. ويحس الانسان بأشياء تتمزق فى داخله الغض .. قال لأمه كلمات يطحنها النحيب :

ـ يا أمى .. انهزمنا ..

يرتمى على الصدر وينخرط فى البكاء .. تبكى هى الأخرى

وقد سبرت غور الكلمات ‥ تحتضنه بحنان الأمومة ‥

« الألم العظيم يخلق الانسان العظيم »‥هذه قولة شاعر‥

« الألم العظيم يخلق الأمم العظيمة » ‥ هذه قولة قائد أسمر طويل القامة ‥

يرين الألم على كل الوجوه : فى القرية ‥ فى المدينة ‥ فى الصعيد الجوانى ‥ فالجسد واحد يمتد من الشمال الى الجنوب ‥

تنبض القلوب بكل العذاب ‥ ولكن هناك بقية حياة ‥ جذوة ضئيلة تنفخها كل الأفواه ، لتبعث الدفء ‥ فالموت برودة ‥ وبعدها يصعد العفن ،، ويظهر الدود ‥

آه ‥ ود لو يصرخ صرخـة عريضـــة تمـرق فى الوادى الأخضر ‥

السؤال الآن : كيف انهزمنا ؟ ‥

لا ‥ السؤال الآن : ماذا نفعل ؟ ‥

يا بلدى ‥ يا عم بسيونى ‥ يا كل الأجيال القادمة : أنا لا أصدق ‥

فى ساعات تعد على الأصابع ، تتهدم أشياء كانت راسخة فى الصدر الجوانى ‥

آه ‥

أنا ابن الثورة ‥ أنا من صنعتنى ‥ وسأظل ثائرا ‥ لن تخمد الجذوة ‥ ويدى تمتد بها للصغير المرتقب ‥

الماضى سياط تهبط على الظهور المحنية ‥ والعرق والموت يختلط بوجـه الأرض ‥ والثمرة حرام ‥ والجهـد لرجل يقف بعيدا ‥ يمتطى جواد أبيض ‥ وبالصلف والخيلاء تنتفخ أوداجه‥

في طفولته كان يسمع جده يقول : الرجل كان يمتلك آلاف الأفدنة . والناس ..

مؤلم أن يعيش الجد في زمن كريه ..

آه .. يتنهـد في حفرته ، بينما الخواطر تنحدر وتهبط في أغوار نفسـه بكل ضراوة .. يسـدد بصره على الساتر الترابي المرتفع .. أسفل الساتر يصطبغ بالعتمة .. ولكن القمة ما زالت نارية ..

الغريب أن الطـائر الأبيض ما زال يضرب بجنـاحيه في الفضاء ، وتنطلق من فمه صرخة التيه .. يتابع الطير بنظراته ..

عن أي شيء يبحث ؟ .. لعلها أرض ضاع فيها العش .. وقد تكون وليفته .. أو ربما فرخ صغير فقده في ليل حزيران ..

متى تستقر أيها الطائر .. متى ؟ ..
يعذبك التيه والغربة ..
أهذه صرخة يأس .. أم صيحة أمل ؟ ..

ولكن حسب الطائر أنه يمتلك الفضاء .. يضرب بجناحيه فوق الماء الأزرق .. أما أنا فأعيش في حفرة .. وها أنت ترى ..

عندما يهبط المدينة يعذبه السؤال الرتيب ..

تقول أمه :

ـ متى نعبر ؟ ..

يبادلها بسمة حيرانة .. يردد أبوه ، وحبات مسبحته تستلقي الواحدة فوق الأخرى :

ـ كله بأمـر الله ..

يعذبه السؤال الرتيب حين يهبط القرية :

ـ متى نعبر ؟ .. هكذا يقول الفلاحون ..

يطرق العجوز العم بسيوني ويهمس :

ـ شيء لابد منه ..

ثم يقطع المسافة الكبيرة ويعود .. يقبع في الحفرة ..

يدق قلبه بشدة .. غضب قديم يتشبث في الصدر .. نبت معه في المعتقل حين تعرت أظافره الدقيقة ..

كان يزعق :

ـ أنا ابن الثورة ..

تهبط السياط فوق الجسد الملتصق بالحائط .. وتنبثق الدماء وتظهر الزرقة المكتومة ..

ينبت الغضب في الأرض التي تشققها الضربات ويكبر .. ويصبح مضمون الأشياء ..

فلنعبر بغضب ..

ونضرب بغضب ..

ونبني أيضا بغضب ..

فالغضب هو الثورة ..

يرين الحزن على القسمات ويستلقي مكدودا ..

ست سنوات كالجبل .. ترقد على الصدر بكل الضيق ..

يتنهد تنهيدة ثقيلة تمرق من مزق الصدر ..

يقول زميله بطرس :

ـ ما بك ؟ ..

ينسل من خواطره .. يتمتم :

ـ لا شيء ..

ـ احترمت صمتك .. ولكن طالت المدة ..

يبتسم ثم يتمتم :

ـ كيف حالها ؟ ..

ـ من ؟ ..

يلوى الآخر رقبته ويسدد نظرة :

ـ سميرة ..

ـ آه ..

وترف على الثغر بسمة :

ـ هذا ما اعتقدته .. لذا لم أزعجك ..

يناوله لفافة تبغ .. يضعها بين شفتيه في صمت .. يجذب نفسا عميقا ، ثم يلقي بالدخان في تراخ ..

على الفور يتخلق في رأســه الوجه الأبيض المســتدير ، والعيون عميقة العسلية ..
وبراءة الطفولة ..

تلتقي الراحتــان بعــد غياب وتتعانق بكل الحب .. وكل الشوق .. يجلسان في الشرفة تحت ضوء القمر اللبنى ..

يدور حوار هامس ، كحفيف أوراق الشجر ..

يقول :

أنت تحبيننى أكثر من اللازم ..

ـوأنت تحبنى أكثر من اللازم ..

يميل العنق فى دلال .. وتسدد العينان نظرة واثقة ..

يصطبغ الوجه بحمرة العذارى ..

ـ سميره ·· متى نلتقى ؟ ··

ـ حتما سنلتقى ··

وتتنهد ··

ـ رحلة طويلة شاقة ··

ثم يزفر فى ضيق :

ـ كان لابد منها ·· فالنار تزيد الحديد قوة ··

يرشقها بنظرة طويلة ويبتسم ·· يهمس :

ـ أنت أصيلة ··

ـ كيف أتركك وأنا لا أجد مثلك ؟ ··

ـ رغم الصعاب ؟!

ـ رغم الصعاب !!

ـ رغم الألم ؟!

ـ رغم الألم !!

يتنهد ·· ثم يضيف :

ـ حملت أمى وأبى فوق الطاقة ·· ما أبشع الألم ··

ـ لابد أن يتعذب كل جيل ··

ـ الرفض له ثمن ··

لكزه بطرس بكوعه ·· انتبه فجأة ·· انسل من خياله ··
قال بطرس :

ـ السيجارة تحرق أصابعك ··

ـ آه ··

أحس بلسع النار··احترقت بالفعل··ألقي العقب وهرسه بقدمه ··

يضحك بطرس ويهبط براحته على كتفه :
ـ شارد .. هنا يا صديقي تختنق الآمال ..
ـ أبدا ..

قالها في هـدوء .. وصرف على أسنانه ، والصلابة تكسو قسمات الوجه .. أردف :
ـ لو أمروك الساعة بالعبور .. ماذا تفعل ؟ ..
ـ أركض وأركض وأركض ..
ـ ها أنت تقول ..

تمددت على شفتيه بسـمة حزينة .. راح يسدد عينيه على الشرق .. ويستطرد :
ـ أنظر .. ترى أي شيء يكون ؟ ..
ـ القناه تتحول الى جحيم اذا عبرتها قدم ..

يسند ذقنه على قبضته ويصيخ السمع ..

ـ تضرب الحصـون والدشم .. على الفور .. تتحرك من الخلف مدرعات .. ومن خلفهـا مدرعات .. والذراع الطـويلة تمتد ..

ـ كم تكلف هذا الخط ؟ ..
ـ ملايين الدولارات .. أقوى من خط ماجينو وسيجفريد..
ـ نحن في عصر العلم ..

قبع في الصمت .. يحس بقلبه يدق بين ضلوعه .. تنقطع الكلمات..فكلمات الألم تختنق تحت وطأة الألم..تشتد ضربات القلب .. يحس بجسده يرتعد ، من أخمص القدم حتى الرأس .. يهرول بكل قوة ويهبط الماء ..

آه لو يفعلها لقفز الكل وراءه .. فالانتظار يحرق الكل ..

تصرخ الأفواه ·· فالموت على الجانب الآخر ··

القناة تصبح جحيم·· تطفو أجساد وتتمدد فوق الماء برتقالى اللون ··

يتحول كل شيء الى حمرة قانية بفعل اللهب والدم ··

فليكن ·· فليحدث ما يحدث ·· ولكن يا أولاد الأفاعى سنعبره ·· سنبقر بطن الموت ·· ونقتل السكون والصمت والعار ··

انتبه الى انفعالنه ·· قال بطرس :

ــ ما بك ؟ أنت ترتعد ··

ــ لا شيء ··

ــ وجهك باهت وقبضتك تهتز ··

ــ لا شيء ··

مرت هنيهة صمت مزقها بطرس :

ــ ما قولك ·· هل سنعبر حقيقة ؟ ··

ــ شيء لابد منه كالقدر تماما ··

فى صوت خفيض ردد بطرس نفس الكلمات :

ــ نعم ·· كالقدر تماما ··

ورشق الفضاء بنظرة حانية ··

قرص الشمس ينزلق ·· لم يبق منه سوى ثمالة من الشفق ، تخضب جزءا من السحاب ··

الغريب أن الطائر يعود مرة ثانية ·· يضرب الفضاء بجناحيه ·· يتجه صوب الشرق ·· عند الساتر الترابى يصرخ ·· يدور دورة فوق الماء الأزرق ، ثم يتجه بصرخته ناحية الغرب ويبتعد··

يقول لسميره وقبضتها ترقد في راحته :

ـ فلنقص فى النفس المصرية ·· أنت درست التاريخ ··

كانا يسيران عبر الشارع الطويل ، المنتهى بالفضاء العريض والأشجار ·

وفى الصدر عمارات العمال ·· وعلى اليسار يربض المصنع الكبير ، فى امتداد خلفى متسع ، والمداخن تشرئب طويلة الأعناق··

نسمة اقبالة الشـتاء تربت عليهما من حين لآخر ، محملة ببرودة منعشة ·· كان الضباب الباهت يسقط وئيدا ، يسربل المصابيح العالية ·· وفى الليل تدق أقدامهما في نصف السكون، برتابة حلوة ··

راح يواصل الكلمات :

ـ قطعا كل شعب له طبيعة ·· وروح ·· فهل طبيعتنا أن نرضى بالاحتلال ؟

ـ مطلقــا ··

ـ هــذا ما أقوله لنفسى ·· اننا شعب عظيم ·· وعظمته ممتدة فى أغوار الأرض والتاريخ ··

تمتمت :

ـ خذ مثلا شجرة الدر ··

ضحك ضحكة عالية ·· ولم شـجرة الدر ؟! ·· دخلنا فى التعصب ··

تضحك هى الأخرى : قلت مثلا ··

يضغط على قبضتها الصغيرة فى حنو ·· لو الأيام تهور بدورة

سريعة .. وتنتهي كل الأشياء البشعة .. ويضمنا بيت .. وأمل .. وولد .. وتطلعات عريضة تمتد في غمرة النهار ؟ ..

عند الأشجار تتوقف الخطى..ترف على الثغر بسمة عذرية :

ـ هذه شجرتي ..

ويضع يده على الشجرة ..

تمد يدها هي الأخرى الى شجرة مجاورة ، تكاد تلتصق بشجرته :

ـ وهذه شجرتي ..

في الحفرة يفتر ثغره عن بسمة مخنوقة .. الحدوته الحلوة تدور في رأسه .. يومها كان في منظمة الشباب ، وهي أيضا .. كان الحب يضمهما بالفعل .. ولكن في صمت يتبادلان نظرات مختلسة سريعة ، ممتلئة بالحياة ..

ولكن في يوم التشجير ظهر الحب واضحا .. تمتد يده المرتعشة ويغرس شجره .. وتمتد يدها هي الأخرى .. وبحياء العذارى تغرس شجرة ..

في نهاية اليوم يسيران سويا ، في الشارع الطويل ، تحت مصابيح الليل المنشورة .. يقول كلمات مبتورة تنسل من حلق جاف :

ـ رأيتك كثيرا في منظمة الشباب ..

ـ وأنا أيضا ..

ينخفض العنق الأبيض .. وتسكب نظراتها على الطريق ..

يمد يده .. يأخذ قبضتها في راحته .. يحس بقبضتها ترتعد .. منداة بعرق الخوف .. كان قلبه يرتجف بين ضلوعه :

ـ أتؤمنين بالنظرة الأولى ؟ ··

لا تنبس ببنت شفة ·· الحياء يقهر الكلمات ·· الا أن الصمت لغة سهلة مفهومة ·· يردف فى همس :

ـ انني أحبك ··

ثم يطبق الصمت ·· صمت مفعم بالرهبة ·· بينما القلوب تضرب بعنف ·· وتكاد تثب من الصدور ·· ولكنها تخفت فى تؤدة ·· ثم تطمئن ··

فى نهاية الشارع تلتقى العيون فى عناق ·· تنام قبضتها فى يده ·· يطل الحب الطفل على الحياة ويحبو ·· يعب فى صدره النسمات ويعيش ·· ينظر بعينيه الصغيرتين الى زرقة السماء والقمر ·· ولكن تنقلب النسمات الرقيقة الى عواصف ·· تضر بالحب الطفل ·· تمزق الصدر الصغير ، والسيقان اللبنية ·· يختفى القمر تماما ·· وتهبط الظلمة ·· ولكن الحب الطفل يتشبث بالبقاء ، ويعيش ، رغم الأشياء الصعبة ·· يكبر ·· ويكتظ بالنماء ·· ويتحدى ··

حين خرج من حفرته وانطرح فى الفراش ، كانت ملاءة الليل السمراء تلف الكون ·· النجوم فى القبة الزرقاء تبرق · وبقع الضوء على الجانب الشرقى تتكسر على صفحة الماء الأزرق ··

فى وسط السكون ينطلق الخيال ، ويجول فى جوف الزمن ·· يستخرج كل الأشياء الطيبة ·· وألم قديم ما زال يقبع فى الصدر ··

يرشق قطعة القمر الباهتة ·· يتنهد تنهيدة ثقيلة ·· القمر يذكره بأشياء بعيدة ·· الشرفة ، والأرض الفضاء ، والشجر ، وهمسات سميره ··

تتلصص أصابعه الى قبضة يدها ·· ترقد القبضة فى راحته ·· يضغط عليها بكل الحب ··

كانت المحن تعنصر عذراءه ·· فتظهر فى التو أصالتها ··

كان يتأملها ويعجب ·· لم يكن يتصور أن الحب لا يصبح سلوكا فقط ·· بل عقيدة تماما كغرامه هو ببلده ، وحبه للثورة ، رغم الفجوة الهائلة بين المعانى المجردة والواقع · كان من الممكن أن يكف تدفق غرامه ، وينقطع تماما ، تحت ألم السيط والقضبان ومصادرة الحرية ·· ولكنه كان يخرج من كل محنه يتأمل ويفكر ·· ويزداد الحب ويزداد التصاقا بثورته ··

وكذلك كانت سميره ··

النار تحرق الأشياء العفنه ·· ويبقى الجوهر ثابتا شديد اللمعان ·· وتسقط حبات الدموع على القلب تروى الظمأ ، وتحمى الحب من الموت ··

كان تيار الثورة يتدفق فى صدره ·· ولكن هناك أصوات تهمس فى الظلام ··

وهو بطبيعته لا يحب الهمس ولا يحب الظلام ··

فى منظمة الشباب توجد مشروعات عمل ·· معسكرات ومحاضرات··وكان هو يتدفق مع التيار الثورى··ومع الصدمات تحل كل الأشياء ذاتيا وبأسلوب ثورى ··

يقول أبوه :

ـ ابتعد عن السياسة ·· فهى لعبة غير مضمونة ··

ينظر اليه وينفرج ثغره عن بسمة :

ـ أية سياسة وأية لعبة ؟ ·· انها البلد ··

يقول أمين الشباب

ـ كتاب ماوتسى تونج فى السوق٠٠التقطوه ،، وادرسوه٠٠ كتاب صغير ٠٠ غلافه أحمر ٠٠

يلتقط الكتاب مع الأيادى التي التقطته ٠٠ يعكف على دراسته ٠٠ انه يدرس كل الثورات ٠٠

يقول أحمد حماده :

ـ أنت مكلف بالقاء محاضرة عنه ٠٠

كانت فى القاعة عيون غريبة تبرق ٠٠ تتأمل المحاضر الصغير ٠٠ تلوذ بالصمت المريب ٠٠ تكاد تنغرس النظرة المسنونة فى لحمه ٠٠ وعلى الوجـوه ملامح صلبة ٠٠ وعلى الأفواه ترتســم بسمات شاحبة تبعث على الخوف ٠٠

يظل سادرا فى الثـورة الصينية من خلال كلمات ماو ٠٠ ولا يلتفت لشىء ٠٠

تخرج الخفافيش بالليل ويصبح الظلام ملكا لها ، خاصـة حين يثقل النعاس فوق الجفون المرتخية ٠٠

تدق الباب طرقات محمومة ٠٠

تجوس أقدام ثقيلة تدوس كل حرمة٠٠تشق النعاس وتبقر بطن النوم والدفء ٠٠ تمتـد الأيادى تقلب كل شىء وتمزق كل شىء ٠٠

يقف مبهوتا لا يصـدق ٠٠ يكاد يزعق فى الوجوه القاسية والقبضات ٠٠ ولكن النظرة المسنونة تخنق الكلمات فى حلقه ٠٠

ترين الصفرة الشاحبة على وجه الأم ٠٠ ترتعد لحيـة الأب القصيرة ٠٠ ويرتسم الخوف على الوجوه ٠٠

لا يدرى ماذا يفعل ‥ ولا يدرى ماذا يفعل زوار الفجر ؟ ‥
يريد أن يمزق الصمت ‥ يفعل أى شيء ‥ ولكن كل الأشياء تتم تحت سطوة رهيبة .

وهو لا يملك سوى رجفـة القلب ‥ وأمامه تتمزق أشياء كثيرة وتتمزق نفسه ‥

يسدد الرجل نظرات قوية الى عينيه ‥ كان الرجل الأنيق يجلس خلف مكتب كبير ‥ أشار بسبابته فى اتهام قد فرغ منه :

ـ أنت شيوعى ‥

تجمعت صرخته فى كلمة واحدة :

ـ لا ‥

امتزجت الكلمة بكل عقائده ‥ وكل العواطف والنقاء ‥

يستطرد بنفس القوة ونفس الانفعال :

ـ أنا مصرى ‥ أنا ابن الثورة ‥ أنا زرعها الأخضر ‥

يقهقه الرجل الأنيق بضحكة متشنجة تصفع الجدران :

ـ ونحن حماتها ‥ نطهرها من أى نبات طفيلى ‥

يحتدم وجه الرجل بالغضب ويردف :

ـ بيت غريب ‥ بين الجدران ملحد ومؤمن ‥ ولكن للأب عذره ‥ لا يعرف شيء ‥

ويستطرد بالنظرة المسنونة :

ـ والآن من هم الرفقاء ؟ ‥

لم يكن يشعر بالخوف ‥ ولكن جسده كان يحتدم بالغيظ ‥ فهو متهم بشيء لم يخطر له على بال ‥ متهم فى ذروة عواطفه ‥ وذوب حبه ‥

كانت الكلمات تخرج من فمه بقوة ·· كثيرة متزاحمة ·· ولكنها واضحة كضوء النهار ··

كانت عينا الرجل تحدق فيه لتخرس الجرأة ، وتحوله الى كتلة خوف ··

ولكن هو ذا يقول بحدة :

ـ أنني أعرف جيدا أنها علمتني ·· فتحت عقلي لكل جديد ·· أعلم جيدا ماذا فعلت كل هـذا أعرفه ·· صنعتني لحما ودما وفكرا ·· هذه هي الحقيقة ·· أما اذا كان في رأسك أنت شيء آخر ·· فهذا شأنك ··

ـ ستدفع ثمن جرأتك ··

ـ انها الحرية ·· ألسنا أحرار ؟!

ترتفع ضحكة الرجل ·· نفس الضحكة العصبية ·· تمتد أياد كثيرة تجـذبه ·· تعرى ظهره وتهبط بالسياط ·· يعتصـم بالكبرياء ·· يقضم شفته السفلى ·· يكتم الألم ·· يخنق صرخة عالية ، تود أن تشق صدره ··

يزداد الألم ويصبح كالنار ·· تهبط الرقبة على الصـــدر وتستكين ·· تذوب كل الأشياء في عينيه ·· تنسدل الأجفـان ونهبط ظلمة كثيفة مترامية ··

مرة ثانية أمام الرجل ·· نفس الرجل الأنيق خلف المكتب الكبير ·· وأزيز المروحة متصل الصوت ··

يرفع رأسه من فوق الأوراق ·· يقول في صوت يمتلىء بصلف السلطة :

ـ نأسف ·· ظهرت براءتك ··

تكاد الدموع تطفر من عينيه ·· دموع تدفعها الحيرة ·· وألم جديد لواقع مؤلم ·· وتجربة جديدة مؤلمة ··

يسير فى الطريق كالمذهول ·· ما يزال ألم السوط يشتعل فى ظهره ·· لماذا أخذوه ؟ ·· ولماذا تركوه ؟ ·· لا يدرى ! ··

الأشياء تبدو أمامه مهتزة بلهاء بلا منطق ··

على أى أرض يسير ؟ ·· وفى أى بلد يحيا ؟ ··

تتلقاه أمه فى صدرها ·· تضغط ·· دموعها تهطل ، وقلبها يدق بشدة ·· تنخرط فى النشيج ··

أما وجه الأب فقد كان مغموسا فى صفرة شاحبة ، ودموعه تسير فى خطين يختفيان فى شعر لحيته ··

فى الليل ·· فى الهدوء والصمت ·· وهو منطرح على بطنه ·· راح يستعيد ما حدث ·· من زيارة الفجر الى الرجل الأنيق القابع خلف المكتب الكبير ·· والقبضات التى انتزعته ، وعرت ظهره لعواء السياط ·· راح يستعيد كل ما حدث فى تيار فكرى متصل ·· ومع شلال فكره المنحدر ، راحت أشياء كثيرة تهتز فى نفسه ·· أشياء يحيطها قدسية ··

ــ أنت شيوعى ··

ــ آسف ظهرت براءتك ··

وهو يذكر أيضا أن الرجل أنذره ألا يتفوه بكلمة ·· والأجدر به أن يلوذ بالصمت ، كانت قسمات الرجل جامدة فى الكلمة ·· تحمل أقصى معانى التهديد ··

والحق أنه لم ينبس بكلمة ·· لم يحدث أمه ·· لا خوفا من الرجل الأنيق ·· ولكن خوفا على أمه ·· فقد سقطت المسكينة تحت وطأة المرض لمجرد القبض عليه ··

ولكنه أطلع سميره على كل ما حدث ، وقص عليها أدق التفاصيل ·· فهو يثق بها ثقته بنفسه ··

ـ تصوری ! ·· هذا يحدث في بلدنا ! ··

ـ شيء غريب ! ··

كان وجهها يحتدم بالغضب ·· وتتخضب وجنتيها بالحمرة ·· ولولا حياؤه لكشف لها عن ظهره ، يريها خطوط الألم الزرقاء ·· والنار المخبوءة في اللحم ·· يردف :

ـ انني لم أفقد ايماني ببلدى ولا بثورتى ·· ولكنى أحس باصابع خفية تعمل في الوراء ·· أصابع تريد أن تقتل الثورة ··

ترف على شفتيها بسمة مهتزة ·· فهي تعرفه ·· تغوص في داخله ·· تعرف نقاء نفسه ، وذوب الحب الكامن فيه ·

كان محتدا في حديثه ·· وكانت تمرق بجواره أشباح يدرك معناها ، فيزفر في ضيق ويستطرد :

ـ انهم يراقبوني ·· هل هذا معقول ؟ ما الذى فعلته ؟ ··

عند الأشجار نقطة الفراق ·· لتذهب هي الى مساكن العمال ·· تضع قبضتها في راحته ··

ـ لماذا ترتعدين ؟ ··

ـ لا ·· أبدا ··

ولكن الدموع خنقتها فبكت ·· واهتز صدرها من النحيب ·· سدد اليها نظرة حزينة ·· قال في نفسه :

ـ انني أنتظر الكثير ·· لكن ثقي مهما كان الالم ·· سأقاوم ·· لن أنهار ··

حين سافر الى قريته ، عثر على صفاء عقله ·· وهناك راح يفكر ·

كان يمشي خارج القرية ·· يحتضن الخضرة المتسعة بعينيه ·· زرقة السماء المنبسطة حتى نهاية الأفق العريض ··

كانت خيوط الفجر الفضية ، وشقشقة العصافير ، وفواح الحقول تجعله يغوص فى نفسه ويتأمل ·· ويغوص أيضا فى ذاتية الأشياء ··

الليل النائم على الحقول ، وفواح القمح على السنابل يجعل فكره ينطرح فى حرية ·· كل همه ، بل كل أزمته ، أن يفقد صلته بالثورة ··

الماضى قد انهدم تماما ·· ومن الحاضر تتشكل ملامح المستقبل ·· هذا صحيح ·· ولكن منذ زيارة الفجر والحاضر أصبح بشعا ، والغد لابد أن يكون على نفس الصورة ·· فالمقدمات تؤدى الى النتائج بطريقة حتمية ··

يقول العم بسيونى ، الفلاح العجوز :

ـ يا سلام ·· حسين بك الشعراوى ·· لا أرانا الله يوما من أيامه ·· كان يملك كل الأرض ، ويملك الناس · أستغفر الله العظيم ··

يضرب العجوز كفا بكف ·· ويحس بقشعريرة من ذكر الماضى ·

يقول أبوه فى أمسية :

ـ آه ·· لا أستطيع أن أصف ما كنا فيه ·· ولكن ·· أحمد الله أن جنبك كل ما رأيناه ·· كان الواحد منا يدخل عمله غير مطمئن الى يومه ·· العمل اثنتا عشرة ساعة ·· وظروفه سيئة ·· والأجر ضعيف ·· والساخطون تفتح لهم البوابة الكبيرة على

مصراعيها .. لقد استطعت بعرقى وبتدبير أمك أن أبنى هذا البيت .. فأنت تقيم فى شقة نظيفـة .. أما أنا فكنت أقيم فى حجرة يسكنها عشرة عمال .. ينامون بالوردية .. على حصير وجوال محشو بقش الأرز كوسادة ..

يرين بنظرة الى المداخن المشرئبة كالأعناق .

وعلى امتداد الأرض تكثر المداخن ، ويكثر هدير الآلات ، وتنتشر أضواء النيون فى الشوارع .. تشع بالأمل ..

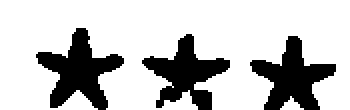
ولكن الانسان .. الدم واللحم والروح ..

الانسان .. العواطف والمشاعر والأحاسيس ..

الانســان .. البسمة والأمــل ..

الانســـــان .. !!

هذه هى المحنة ..



يمضى به الليل ويطرح ملاءته القاتمة •• تسقط كل الأشياء في الدكنة •• وتنطلق أفكاره •• ولكن القبة الرمادية تلمع بأضواء النجوم •• ضوء خافت بعيد ••

يشعل لفافة تبغ ويسير في العراء •• خطى بلا هدف مقصود ••

يقول صديقه بطرس :

ـ أنت شارد •• تغيرت هذه الأيام •• ولكني أعرف فيما تفكر •• سميره ••

يضحك ويواصل كلماته :

ـ أنا الآخر مثلك •• أفكر في تيريزا ، ولكن ليس كل الوقت •• شيء لتيريزا وشيء للبندقية ••

يخرج من جيبه صورة تيريزا ••

ـ أنظر •• (يتنهد بزفرة شوق) •• جميله ولكن في هدوء •• هكذا هي : كل شيء فيها جميل ولكن في هدوء •• متدينة •• تذهب الى الكنيسة أيام الآحاد •• لا تتخلف وتدعو لي بالنصر.

يضرب على كتفه مازحا :

ـ سنعود يحفظنا الرب •• وسننتصر •• الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون ••

في جوف الليل يهمس بآيات الانجيل ، اكليل الشوك والصليب والجلجثة ••

يرفع رأسه ويرشقه بنظرة .. يتمتم :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

تتمدد على شفتي الآخر بسمة خابية .. يستدير في صمت ويتابع الخطى .. بطيئة متثاقلة ..

الليلة رطبة والهواء بارد يهب من ناحية الشرق .. بقع الضوء المنبعثة من الحصون تتكسر على وجه القناة في همس .. تبدو له كالبثور تشوه وجه أزرق جميل ، وتسكب في نفسه شعور بالضيق ..

في أول الليل كان القمر مجرد بداية لم تدم طويلا .. ثم طفحت القتامة من الجوف وتكاثفت ..

تتدفق الأيام البعيدة في رأسه ..

يشرد دائما .. هكذا يقول بطرس ..

لم يعش بكليته في الماضي .. وصدره يحتضن ذكريات قديمة مؤلمة ؟ ..

في داخله شيء مبهم لا يستطيع أن يصل الى كنهه .. يحس به فقط .. ويشعر بلحظات قصيرة يشتد قربه من الله ، بوجدانه وعمق النفس ..

هكذا الانسان .. تسبق روحه رؤية أشياء تقف ماديتنا عاجزة عن رؤيته .. وربما يكون هذا مصدر الابهام ..

كل شيء يبعث على الضيق ..

السواتر الترابية تضغط على صدره .. تسكب في قاع الانسان شعور بالمهانة ..

قد يكون الصمت والصبر مجرد شعار ·· لم لا يكون مجرد شعار ؟ ·· يعتصر جبهته بأصابعه ويحس بالعذاب ··

لم يشك في كل الأشياء ؟ ·· رغم يقينه بنسمات جديدة تهب على الأرض السمراء ··

تداعت المعتقلات ومع سطعة الضـوء سقطت الخفافيش في أصوات الذعر ··

الثورة تسير ·· بلا شـك ·· بلا شـك ·· يعتصر جبهته بأصابعه ويحس بالعذاب ··

يهمس في نفسه : الثورة تسير ·· والجذوة في صدري لن تخمد ·· التدريب ليل نهار ·· وأعقد الأسلحة أصبح واضحا ·· فلم أشك اذن ؟ ··

ربما يكون الشك مرحلة عذاب توصل الى اليقين ··

ستحدث الحرب حتما ·· حتما ·· ويقف الانسان وجها لوجه مع أدعياء الحضارة ·· يقف وخلفه آلاف السنين ممتدة في حضارة عريقة ··

أسطورة يصنعها الزيف وأبواق السطو ·· فلسفة لصوص ·· أبو عمـار ·· يكاد يصيح وسـط الليل بصرخة عالية يتردد صداها بعيدا حتى المخيم ··

أبو عمـار ·· احك للعالم كيف طردوك طفلا من دارك ·· كيف تم ذلك ·· كيف احترقت أشـجار البرتقـال وأغصـان الزيتون ··

الجسد السفاح يكبر ويمتد ·· ويصبح على مرمى البصر ·· كم يتعذب الناس هناك ؟··

والعم بسيوني ما زال يضرب كفا بكف .. وفي المدينة يتناقش الناس تحت المصابيح الكهربية .. ولكن في ذروة الأفق ينمو الأمل الطفل ..

فلنصمت ولنصبر ..

ولكن .. الى متى ؟ ..

مع السؤال تشتد الحيرة ويرجف القلب رجفة الغضب .. يرنو بعينيه ناحية الشرق .. في ظلمة الليل تعبر الظلال .. يكاد يسمع صهيل الخيل وطرقعة العجلات ..

يا لروعة أحمس .. هو ذا الملك الشاب .. يرفع ساعده بالقبضة المضمومة .. هو ذا يطرد الهكسوس .. وهنا أيضا عبر نابليون ، وتحطم حلم امبراطوريته ، وعبر قطز وانتصر ، وصلاح الدين .. وهنا أيضا أولاد مرقوا كالشهب .. قطعوا ذيل الأسد البريطاني واختلطوا بالأرض السمراء ..

تيريزا يا خطيبة بطرس ..

دقي أجراس كنيستك .. دقيها بقوة ..

ترتفع هنا تكبيرة .. تعانق دقات الأجراس ويموت العار ..

تيريزا .. دقي أجراس كنيستك .. دقيها بقوة ..

تتوقف خطاه .. يحس بدموعه تنثال على خديه .. ينتحب بصوت مكتوم ..

تمتد يد بطرس تربت على ظهره .. يحتويه بين ساعديه ويقبله ..

ـ ما بك ؟ ..

ـ أبدا .. أبدا ..

ـ تشكو من شيء ؟ ..
ـ أبدا .. أبدا ..
ـ أنت تتألم .. صدقني ..
ـ هذا حق ..
ـ تعال استرح .. أنت مجهد ..

يبكي واضعا رأسه على كتف ابن الانسان .. بالخطى الثقيلة يغوصان في الظلمة .. يجلسان تحت ضوء خافت مخنوق ..

يقص بطرس قصة المعلم ..

الحق أقول لكم .. الجموع تسير من خلفه .. الثورة فى الهيكل .. بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ..

تطرق اللحى الطويلة وتنغرس في الكبد .. يهبط الليل على الهمس القاتل .. يحيطون بقصر بيلاطس وتعلو الأصوات : « اقتله .. اقتله .. اصلبه .. اصلبه دمه علينا وعلى أولادنا » .. يحمل السيد صليبه الخشبى الكبير .. يصلب عند الجلجثه .. ذلك لكى تكمل الكتب ..

يتمتم بطرس :
ـ هكذا يقول الانجيل ..

يتمدد فوق فراشه .. يطبق أجناحه ويستدعى النوم .. ليته ينعس ..

لم يترسب الحزن ويتكاثف الألم .. ولكن ماحكمة الألم ؟ ..

لا يمكن أن يكون الألم يأس .. مرحلة قاسية يسبر فيها الانسان غور الأشياء .. يعمل فى اناة وصبر وألم .. حتى يصل ..

في يونيو الحزين كان الألم عميقا .. لا يطاق .. ينضح من جرح عميق تقيح في لحظة .. هبطت الدموع من عين الانسان على الأرض ، كحبات اللؤلؤ ..

في الأمس البعيد تألمت ايزيس ..

قطعوا جسد الملك الشاب ..

يا ويلتى ..

يبدو الجرح عميقا .. يشتد النزف .. ويشتد الألم ..

ولكن هي ذي تبحث عن قطع اللحم المنثور في كل البقاع .. وبالصبر تجمع الجسد الملكى .. تبكى ايزيس .. تسقط الدموع على الأشلاء فينهض أوزيريس ..

انها مصر .. قصة الأرض السمراء ..

نحن نرفض الهزيمة .. لا نرضى بالمأساة .. سنبحث عن أوزير المقتول ..

بالصبر والصمت .. وفوق قمة الألم نجمع الأشلاء .. وينهض الجسد ..

هذه ليست أسطورة .. ولكنها مضمون الانسان في بر مصر ..

لا يعرف اليأس ..

يتحسس طريقه في أناة ويعمل .. ويمتد أمله عبر الأجيال ..

في جوف الليل نهض من رقدته .. ألقى نظرة على بطرس .. كان الوجه المسيحى يغرق في النعاس .. والقسمات ترين عليها الطمانينة ..

فى الخارج يحتضر الليل ‥ تنحسر القتامة ويقترب الفجر ‥ يدور صراع رهيب صامت بين الضوء والظلمة ‥

لابد أن ينهزم الليل ‥ ذاك منطق الأشياء ‥

نظام كبير محكم ‥ الليل يصعد ظهر النهار والنهار يبقر بطن الليل ‥

كان يسير بخطى بطيئة ‥ والهواء مخضب بالرطوبة يصفع وجهه ، صفعات واهنـــة ‥ وعما قليل يسقط الندى مع بداية الصبح ‥

ترشق عينه الساتر الترابى وتظل هناك ‥

كلمة « نكسه » كلمة مؤدبة ‥ ولكنها هزيمة مرة ‥

تخبط الانسان فى صحراء عريضة ‥ لا يدرى لم أرسلوه ولم تركوه ؟ ‥ وفى لحظـة المأساة نسجت أسطورة واهيـة . أصبحت عريضة عرض العالم ‥

لا ينهزم الانسان من فراغ ‥ لابد من جذور مريضـه ‥ حينئذ يكون الزرع الأخضر باهتا ‥ مريضا هو الآخر ‥

كيف يتسلط أفراد تصبح لهم هذه القوة ‥ ويصبحون هم السلطة ‥ قوة عمياء مجنـونة ؟ ‥ حين تفرض العبـودية على الانسان تفرض عليه الهزيمة ‥ أما الأحرار فلا ‥

انزعوا من الانســان كل القيــود ‥ حطموها ‥ اطلقوا الكلمات ‥ دعوا النسمات تدخل من كل اتجاه ‥ واحذروا أن تمرض الصدور ‥

دعوا الانسان يعمل ‥ يضرب وجه الأرض ‥ يرفع بعرقه هدير الآلات .

دعوه يزرع وردة جميله ويقطفها بيديه ·· دعوه يغنى كل اغانيه ·· خصوصا أغاني الحب ·· فمن طبعه حب الحياة ·· دعوه يتدثر بصدر امرأة ·· وينعس مع الأولاد ·· دعوا له النهار ·· واعطوه أمن الليل ··

الصمت والصبر ··

الى متى تبقى الأشياء معلقة ؟ فالصـدر تمزقه الأحداث ·· ويرتفع اليأس مع ساتر التراب ·· والألغام ··

الصمت والصبر ··

الرجل الأسمر خبر التاريخ ·· من قمة الحدث ينظر ·· لابد وانه يدرك عمق النظرة ··

يهتف وهـو صغير : « ·· يسقط ·· » تجذبه القبضـات ويمكث خلف القضـبان ·· يعيش فى سـمرة الأرض ويتأمل ·· يستوعب التاريخ ويسبر غور الانسان ··

ولكن صدرى ضيق ·· والضيق يلتف حول عنقى ويضغط ·· أكاد أختنق ··

لماذا انهزمنا ؟ ·· آه ·· فليمض الأمس بلا عودة ·· راسى تؤلمنى ··

أبدا ·· الماضى والحاضر جزء لا يتجزأ ·· والغـد له نفس الكيفية ··

ذابت كل المسافات على كرة الأرض ··

العالم يضحك ·· ينصح أن نسلم بالهزيمة ·· حتى الصديق يقول : لا فائدة ··

يا بلدى ··

لا تسالينى أين كنا

كنا نقبع فى المعتقلات ‥ خلف الجدران والقضبان‥والكلاب تنهش لحمنا ‥ ونكتم الصرخات ‥ ويتعرض بعضنا للجنون والموت ‥ وكنا نحتمل ‥ من أجلك يا بلدى ‥

فى السكون انحدرت دمعة ‥ هبطت على وجنتيه ‥ ازالها باصابعه فى تؤدة ‥

هو ذا صوت أبيه يدوى فى أذنيه ‥

ـ ستسافر الى القاهرة ‥ للعلم فقط ‥ لا تدرى مقدار فرحتى ‥ أصبح لى ابن فى الجامعة ‥ حلم ‥ ولكن كل ما أرجوه أن تبتعد عن السياسة ‥ لا يجىء منها سوى وجع الدماغ ‥ السيد الهوارى أخذوه ‥ خربوا بيته ‥ رموه وراء الشمس ‥ والويل لمن يساعد أسرته ‥ أرجوك ‥ دعنى أعيش وأنا مطمئن عليك ‥ انى على استعداد أن أفقد كل شىء الا أنت ‥ أنت أمل كبير وكفاح طويل وعرق ‥

أغرورقت عينا الرجل بالدموع ‥ احتواه فى صدره وقبله ‥ ثم أردف :

ـ الف سلامه ‥

عندما هبط الى القاهرة كان الألم ما زال يترسب فى الصدر ‥ كان يعيش فى قوقعة صمت ‥ لا يستطيع أن يستوعب ما حدث ‥ لماذا جلدوه ؟ ‥ ولماذا حطموا كل الأشياء فى البيت ؟

- يومها نظر الى أبيه نظرة اعتذار ‥ غمغم الرجل :

ـ أنت المهم ‥ أنت رأس مالى الحقيقى ‥

قالت أمه :

ـ كله فداك : المهم أنت ..

يومهـا استطاع أن يخفي عنهما آثار السـيـاط والزرقة المكتومة ..

في الجامعة .. يشتد اللغط كطنين النحل ..

يتحول الطنين الى كلمات مسموعة ..

ـ أحذروا .. بينكم جواسيس ينقلون الأخبار ..

يذوب الهمس ويتمزق الخـوف .. تتقد الكلمـات وتصبح محمومة ..

لماذا انهزمنا ؟ هل هي هزيمة حضارية ؟ أم هزيمة طبقة ؟ .. وما السبب ؟ .. ما هي المحصلة النهائية ؟ ..

كيف تحيا البلد الآن ؟.. ألا تلاحظون الجو الرهيب ؟ .. ألا تشمون شيئا يزكم الأنوف ؟ ..

كان يقبع في صدفة الصمت يصغي ويتأمل .. ولكنه كان يحس بالغضـب .. والحب الكبير يتدفق في قلبه .. وتنصـت سميره هي الأخرى .. وعلى الطريق يتحدثان :

ـ ما رأيك ؟ ..
ـ البلد تسير في طريق ضيق مسدود ..
ـ نحن نعيش ليل طويل قاتم ..
ـ الى متى ؟ ..
ـ لا أدرى .. سميره .. أتحبين بلدك ؟ ..
ـ بلدى معناها أنا .. معناها كل أيامى .. وغدى ..
ـ الغد بشع ..
ـ هذا ما أحسه ..

يطبق صمت مرهق ·· ولا يسمع على الطريق سوى الخطى تضرب الأرض في غضب ·· يحسان بمزق الصدر ·· مزق شديد ·· ولكن وسـط الضباب يبصران بوضـوح ·· فعيون الشباب حادة ··

معنى الثورة : رفض الذل ·· توهج الحرية ·· اعلاء قيمـة الانسـان ··

يزعق في داخله :

الثورة مخنوقة ··

ومعها يختنق الانسان ··

يحس بالغضب وارهاق الذهن ·· تسقط خيـوط الصبح الأبيض ·· تتوقف خطاه ·· تتدفق في صدره نسمات رطبـة منعشة ·· يحن للنوم ·· يعود بخطاء ·· يحدج الأفق بالنظرة الخذلانة ·· هو ذا الطائر يأتي من بعيد ·· يشق الصبح بجناحيه ·· ييمم شطر الشرق ·· هو ذا الساتر الترابي ·· ولكنه يعود وينحدر ناحية الجنوب ·· ثمة شيء يبحث عنه ·· يا طائر ·· أي شيء ضاع ؟ ··

يستلقي على الفراش وينـام على جفنيه ·· يهبط في بؤرة خرساء بلا قرار ·· يهرب من وطأة الفكر ويلوذ بالنوم ·· شعوره بالتعب يجعله ينام في عمق ·· ولكن عقله الباطن يجد الفرصـة سانحة فينطلق في حرية ·· يرسم صورة لا تمت الى الواقع بصلة ·· ها هي سميره فوق الساتر الترابي ·· تبتسم ·· تفرد ذراعيها وتناديه ·· يسمع صوت الأجراس ·· تيريزا تعرفه منـذ زمن قديم ·· تقول له في عذرية :

ـ انني أدق الأجراس من أجلك ··

وتواصل جذب الحبال ..

يرقد على أرض رملية متسعة .. صدره ينزف .. تجرى سميره وتحتضن رأسه .. وتحتضن بقع الدم المنساب ..

تتمتم شفتاه عبارة مبهمة .. الصوت فى أذنيه .. يحس بدبيب النوم ينسل من جسده .. ينهض يتمطى كالعادة يستوعب المكان .. الضوء المنسل من الثقوب يشى بالظهيرة .. هو ذا بطرس ينحنى ويكتب :

ـ صح النوم ..

بسمته تتحول الى تثاؤب ممطوط .. ينهض ويترك الفراش .. يقول بطرس ملوحا بالورقة البيضاء :

ـ خطاب الى تيريزا ..

ـ صباح الحب ..

يضحك بطرس ويتمتم :

ـ الله محبـة ..

يسند ذقنه على كفه ويبحث عن كلمات الحب ..

ازدرد لقيمات .. ليست لديه شهية للطعام .. أشعل لفافة تبغ .. تاق الى نسمات النهار فخرج .. كان الضوء الفضى يغرق كل الأشياء .. يلمع على وجه القناة كالشهب ويغوص فى العمق .. راح يعب فى صدره النسمات ..

كان البعض يستحم فى ماء القناة .. والبعض الآخر يجلس فى استرخاء ، يأكل الفاكهة ويلقى بالقشر فى ملل .. وتنطلق من أفواه البعض صيحات عبث ..

الحصون الشرقية تربض فى هدوء ، والسواتر الترابية تقف فى رتابة ، تؤدى رسالة الخوف ..

كانت الأيام القليلة التى قضاها هنا أيام متشابهة .. ولكن مع قلتها استطاع أن يستوعب الأشياء الرهيبة ..

قرأ عن خط بارليف .. يعرف أنه أقوى من خط ماجينو وسيجفريد .. أقوى خط دفاعى أقيم فى العالم .. وآخر صيحة فى علم الموت ..

حصون ودشم تتمشى مع ابتكارات عسكرية حديثة..سواتر ترابية ملغمة ترتفع عشرات الأمتار ..

خلف السواتر والحصون تربض المدرعات .. خط أول .. وثان .. وثالث .. وتشترك الطبيعة فى تعميق الخط الدفاعى.. فجدار القناة منحدر جدا ..

شىء صعب ومخيف ..

هو لا ينكر أن نظرته الأولى صدمته .. والحقائق التى قرأها راحت تتلاحق فى رأســـه .. تؤكد الصـــعوبة .. ولكن الحقيقة المؤكدة ، المؤلمة فى نفس الوقت ، أن المستحيل لابد أن يقـــابل بالمستحيل ..

القضية جمود وحركة .. حياة وموت ..

لو صدر الأمر بالعبور هذه اللحظة .. ماذا يحدث ؟ .. أنت شخصيا ماذا تفعل ؟ ..

اندفع بكل قوة .. وأمـرق فى الجحيم .. مهما كان هـــذا الجحيم ..

قد تموت ؟ ..

الموت والحياة مسألة أخرى لا يملكها الساتر الترابى ··
ولا الفوهات التى تطل من المزاغل ·· مسألة لا يملكها سوى الله ··

فى هذه النقطة ايمانه مطلق ··

قالت سميره فى آخر مرة :

ـ كيف الحال ؟ ··

ـ عظيم ·· ثقى من ذلك ··

ـ أريد أن أطمئن ، دون التحدث فى أسرار عسكرية ··

ـ التدريب قاسى جـــدا ·· ليل نهار ، تدريب واقعى على مستوى المعركة ··

تمددت بسمة على شفتيه ·· رشقها بنظرة ضاحكة · أردف:

ـ يكفى هذا ؟ ··

ابتسمت هى الأخرى وقالت :

ـ نعم يكفى ··

سأله أبوه نفس السؤال ·· فكان الرد المقتضب ··

السؤال فى كل الصدور يتحسس الطريق الى الأمل ·· ولكن فى حذر شديد ··

ـ لماذا لم نضرب فى عالم الحسم ؟ ··

يقول العم بسيونى ·· يضيق عينيه وتتجمد قسمات الوجه الشائخ .

ـ شىء محير ·· ولكنى أعتقد أن صاحب الضربة الأولى لايعلن عن نفسه بهذه الطريقة ··

يسدد العجوز عينيه الضيقتين وينصت ·· يســود صــمت مرهق ·· يسكب نظرته على الخضرة المترامية ··

يردد فى صوت خفيض أجش :

ـ شيء محير ..

الخالة زهرة تقول :

ـ عثمان ابن خالتك ذهب هو الآخر .. أصبح لى ثلاثة أولاد على الجبهة .

يتسع فمها بابتسامة شجاعة .. تغرس أصابعها الرفيعة البنية فى شعر الحفيد الجالس على الفخذ الهضيم .. تستطرد :

ـ ربنـا معكم ..

فى أمسية قمرية يقول العم بسيونى فى حلقة الفلاحين :

ـ لو أنصفوا لأجلسونى خلف مدفع ..

يضحك الفلاحون ويواصل هو كلماته فى جدية :

ـ تضـحكون يا غجر ، وأنا الجنـدى القديم .. ذهبت الى السودان .. ووقفت فى وجه رومل .. أين كنتم يا غجر ؟

ـ فى البطون ..

ـ فى الطريق ..

ـ هل كنتم تحاربون بالمدافع ؟ ..

ـ وبالسـلاح الأبيض ـ يقول العم بسيونى ويشـدد على الكلمات ـ وكنا جدعان ..

يرفع هو صوته فوق صخب الفلاحين :

ـ ونحن أحفاد الجدعان يا عم ..

يطرق العجوز وتتحجز الرقبة على الصدر .. يبكى الرجـل فجأة فى صوت مسموع ..

ـ ما بك يا عم بسيونى ؟ ..

ينهض الرجال يقبلونه •• يربتون على الظهر النحيل ففى حزيران فقد أحب أحفاده ••

ما زال بطرس ينتقى كلمات الحب •• يكتب كلمة ، ثم يضع ذقنه فى كفه ويشرد ••

ـ كتبت سلامى ؟ ••
ـ السلام فى نهاية الرسالة ••
ـ أخذت منك وقتا طويلا ••
ـ بقدر الحب يكون التفكير •• اننى أحب تيريزا •• حياة بدأت مع الطفولة •• وأملى بعد المعركة : بيت صغير ، وطفلان ، وأحضان دافئة ••

ـ بطرس •• ما وجهة نظرك ؟ ••
ـ فى أى شىء ؟ ••
ـ الشىء الوحيد الذى يشغل فكر البلد ••
ـ لابد من الحرب ••
ـ أليس هناك حل آخر ••
ـ الاستسلام ••
ـ ليس هناك طريق ••
ـ ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ••
ـ أصبت ••

منذ أن جاء الى الجبهة وهو يشرد •• رؤيا واضحة للماضى •• وتأمل واستيعاب للجزئيات •• لايدرى ما السبب ؟ •• ولكنه منتبه لكل حركة تدور حوله •• لا يغيب عن حاضره تماما •• يحس بالم يشرئب من الماضى والحاضر والغد الضبابى ••

احساس مبهم لا يستطيع أن يفسره ••
تتشكل صورة سميره مع نسمات العصارى ••

يشـعل سيجارة ينفث دخانها في تراخ .. ويستغرق في فكره .. يهمس :

ـ أحبـك ..

يرى الوجه الأبيض في منظمة الشباب . تجـذبه البسمة وبراءة وجه الطفل .. يلوذ بالصمت وتمضى الأيام .. يعرف عن فتاته أشياء كثيرة .. تقرأ كثـيرا .. وتحب البلد .. تنظر اليه نظرات مختلسة .. يفاجىء عينيها ويبتسم .. تكتم بسمتها تحت وطأة الخجل .. كم أحبك ..

قضى معها أياما جميلة وليالى ناعمة ..

هل تذكرين الأشياء الوردية ؟ وقتامة الأشياء الصعبة ؟ ..

لابد وانك تفكرين فى الآن .. أنا واثق .. أكاد أراك .. رؤيا يخضبها ضباب بعيد .. ولكنى أراك بوضوح .. ها هو قلبى يدق من أجلك ..

حياتى .. كيف أنت ؟ ..

همستها الناعمة .. تسقط وئيدة كقطرة الندى ..

ـ أحبـك ..

يجىء الربيع وتتفتح الزهور ..

نفس الهمسة الأولى المتعثرة فى الحرج .. ينطقها وجه مسربل بحياء العذارى ..

ثم سرنا معا فى الشارع الطويل .. يدثرنا الصمت ..

عند الشجر تتعانق الراحتان .. وترتعش رعشة الفراق ..

كم كانت فرحته حين رآها فى الجامعة .. حتى هى .. خاصة أن الأمر تم مع بداية العام ..

اثر خطأ فى التنسيق صحح فى آخر لحظة ..

أمضيا في القـــاهرة أوقاتا طيبة .. لم يكن الوقت للحب فقط ..

زارا المتـــاحف ، وأمكنة الآثار .. وجالا في الحضـــارة القديمة ..

تناولا طعامهما عند سفح الهرم ..

كانت ألذ متعة أن يقرآ ..

وأحلى أوقاتهما مناقشة كتاب .. أو فكر معين ..

ـ ما رأيك في الماركسية ؟ ..

ضحكت وهي تقول :

ـ فكر يهودي ..

ـ لا تهم العقيدة .. ما رأيك في النظرية ؟ ..

ـ لماذا يبحث الفكر اليهودي في الدمار ؟ ..

ـ تجنبي النظرة الضيقة ..

ـ من منا فكره ضيق ؟

تنطلق منه ضحكة ثم يستطرد :

ـ قولي .. ما رأيك فيها ؟ ..

ـ تأخذ رأيي في الالحاد ؟! ..

ـ هذا يعني أن شعبنا لن يكون ماركسيا ؟ ..

ـ مستحيل ..

ـ نعم مستحيل ..

يواصل كلماته في تؤدة .. كيف يقنعون فلاحا بالكفر ؟ .. سميره .. الايمان في مصر مضمون الحيـــاة .. مهما كان فسق الانسان فهو لا ينكر وجود الله .. بل دائما ينشد التوبة .. عقيدة قديمة قدم الانسان .. ألم تجيء كلمات التوحيد على لسان اخناتون في يوم سحيق في التاريخ ؟ ..

مستحيل ·· (يردد فى نفسه) ·· هذا الشعب الطيب مؤمن ·· يحس بروحه ويعمق ·· ولابد من جانب عظيم تستنفد عليه ··

كانت ضربات قلبه ترجف ·· دقات عنيفة تؤكد عقيدته ·· لاذا بالصمت والأقدام تضرب الأرض فى خطى قوية شابة ··

ساعتها تذكر الرجل الأنيق القابع خلف المكتب ·· وتذكر تجربته الأولى :

ـ أنت شيوعى ··

أحس بلذع الألم والسبابة ترتفع بالاتهام ، وبنار مصهورة تنصب فى الجوف ··

كان الاتهام أقوى من ضرب السياط ، وأشد من الكدمات الزرقاء ··

كذلك الانسان فى بر مصر ·· يحس بروحه قوية جياشة ولابد من الايمان ··

يقول بطرس : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ··

ـ كيف الحال ؟ ··

انسل من خواطره كومضة البرق وانتبه للصوت :

ـ تمام يافندم ··

كان واقفا وقفة عسكرية ·· منتصبا فارع الطول ·· أسمر الوجه ·· يمتلىء صدره بالحياة :

ـ ما رأيك فى الحصون والسواتر ؟ ··

ـ اصدروا الأوامر يا أفندم ·· وسترى ··

تنهد القائد :

ـ أنا واثق ··

تمتم :

ـ انه المصير ··

ردد القائد نفس الكلمات :

ـ نعم ·· انه المصير ··

كان وجه القائد محتقنا ·· تمدد صدره عن تنهده ، ثم أردف :

ـ فى ٦٧ كنا فى سيناء ·· صدقنى أن السؤال الذى كان يتردد فى خاطرى : لماذا ذهبنا ·· ولماذا عدنا ·· ولماذا لم نحارب ·· وأخيرا : لماذا انهزمنا ؟ ··

فى المدينة ·· تحت المصابيح الكهربية تدور نفس الكلمات ·· ويضرب لها العم بسيونى كفا بكف ··

ملهاة مبكية ··

مأساة أخذت نصيبا وافرا من الكوميديا ··

تحولت الى نكات فى فم شعب ضحوك حتى فى قمة الألم ··

ولكن ·· هل هزم الانسان الرابض على الأرض السمراء ؟

أبدا ·· تصدت قوة صغيرة فى رأس العش منعت تقدم جيش اسرائيل ·· نفذ صاروخ بحرى شق المدمرة ايلات ··

لكن الخفافيش كانت لا تزال تملك الليل ·· تضرب بجناحيها وبالصوت المنفر تزرع الخوف ··

خنقوا الانسان لكنه لم يمت ·· لأنه لا يموت ·· ولكن هذا الانسان اذا ما أخذ حريته كاملة ·· فلابد أن يكون رائعا ·· متصلا بروعة القدم ··

كنت أقرأ وأتعذب ·· فالمعرفة لعنة ·· حين تعرف لابد أن تكتوى بنارية الفكر ·· لابد أن تخرج من السطور وتصطدم بواقع مر ·· هذا شيء لابد منه ·· حينئذ يفكر الانسان ·· وحين تتعرى الحقيقة تسرى مرارتها فى فمه ·· ويحس بالغثيان ···

اننا فى ثورة لابد أن ننجز الكثير شأن الثورات ·· الثـورة تأخذ الأمم من الحضيض وتدفعها دفعا الى التقـدم ·· ولكن على الأرض السمراء الطيبـة تسـقط ظلمة كثيفة ·· ويعشش ليـل كئيب ·· ورائحة العفن والأدران تفوح وتزكم الأنوف ··

يقول أبوه :

ـ مالنا يا ابنى ؟!

تلمع الدهشة فى عينيه ·· ويلذعه ضمير قديم :

ـ كيف يا أبى ؟ ·· أنت رجل دين ·· تركع لله كل يوم ··

يتمتم الرجل فى حرج :

ـ يا ابنى ! ··

يقاطع الكلمة ويواصل حديثه :

ـ الدين ثورة ·· نشأ الرسول فى مجتمع قبلى فظيع ·· مجتمع أسياد وعبيد ·· ثم ما هى المحصلة ؟ ·· صوت يقول : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لعدلناه بسيوفنا ··

ترين على وجه الرجل صفرة باهتة ·· يتطلع الى الولد بنظرة نفاذة ·· ثم تعود الدماء تضرب فى وجهـه من جديد ·· تتوسد شفتيه بسـمة ·· يطوف بعينيه من قمة الرأس حتى أخمص القدم ·· كالصانع الذى صنع شيئا رائعا ·· يدنو منه ويحتضنه · يسكب همسة تجيش فيها كل العواطف :

ـ بارك الله فيك ··

يغمغم وقد أطرق برأسه :

ـ هو الضعف •• حين تصبح أبا ستعرف الكلمة ••

ولكن الرجل يوصيه وهو ذاهب الى القاهرة :

ـ كل ما أرجـوه أن تلتفت الى درسك •• لابد أن تأخـذ الشهادة ••

خسر الرجـل الكثير •• فزوار الفجر حطمـوا ومزقوا كل شيء •• ولكن الرجل لم يكن يهمه سوى الولد •• فهو رأس ماله الحقيقى •• وثمرة كفاح طويل مرير ••

حين انحنى يقبل يد أمه •• بكت فى نهنهة وقالت :

ـ أول مرة تتغرب ••

ضحك ••

ـ المسافة بسيطة يا أمى ولا توجد غربة ••

تعانى المرأة بالفعل••فهو الولد البكرى••يومها كان حكيما حين أخفى عنها أثر السياط •• لو رأتها لماتت على الفور •• ولكنه كان يستشف من الوجوه الشائخة ايمانا به •• الا أن الحب يعرف الضعف ويوغل فى الخوف •

يقول بطرس :

ـ غدا أول رمضان •• عام طيب ••

يشترى الآباء « فوانيس » رمضان •• خضراء وحمراء •• تشتعل فى الليل •• وتتحرك على وجه الأرض كالنجوم •• تحملها أياد صغيرة رقيقة كالزهور •• ويشدو الصغار بأغنية جميلة ••

ولكن رمضان يأتى حزينا •• ككل أيام الحزن •• كأوراق الخريف الجافة •• تتهاوى تحت صفع الريح ••

على المآذن يرتفع النداء .. يركع الناس وترتفع الأكف بالدعاء ..

حتما سيأتي الفجر ولكن في تؤدة .. حتى اذا ما انداح ضوء النهار .. تدق أجراس الكنائس ..

ويكرر قس :

ـ الله محبة .. الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون..

في الليل كان القمر الوليد يسبح في زرقة السماء ..

الغريب ان الطائر ظهر في الفضاء .. نفس الطائر الأبيض يمم شطر الساتر الترابي وصاح ..

ثم عاد أدراجه .. وذاب في العمق الغربي ..

كانت بقع الضوء تسقط من الحصون .. تلمع فوق سطح القناة .. كم يضيق من هذه البقع ؟ ..

توارى القمر الوليد .. تمدد الليل في الدكنة .. وساد الصمت الا من حشرجة بعض الآلات ..

كان يقف في الليل القاتم بسلاحه .. يهمس في نفسه : مأساة أن يحارب الانسان .. ومأساة أن تفرض عليه الهزيمة ..

وشق الحصن بنظرة نفاذة .. وراح يفكر في الانسان القابع هناك .. هل هو متحضر بالفعل ؟ .. هل كسب الجولة بحضارته واستيعاب العلم الحديث ؟ ..

لم تحدث مواجهة ولم تحدث حرب .. نصر رخيص تحول الى ضحكة في فم الشعب الضحوك ..

ولكن كانت الدموع تنهمر ..

من يخون بلده يصبح كقاتل أبيه .. لابد أن تكون جذوره ممتدة في الحرام ..

لماذا يتآمر علينا الغرب ؟ ..

وتتآمر علينا الصهيونية ؟ ..

متى حاربنا العقائد ؟ .. لم يحدث مطلقا .. منــذ القدم ومصر عش الأنبياء ..

يرتفع صدره عن زفرة .. يخطو خطوات ثقيلة تصفع وجه الأرض ..

يتوقف ويصيخ السمع .. أصوات تصدر من الجانب الآخر .. وتعلو ضحكات ناعمة ..

يقولون ان خط بارليف مزود بكل الترفيه .. ضوء الكهرباء .. والسـينما .. وحفلات الرقص .. والدعارة .. وهنـا .. لا شيء ..

هنا حفر وخنادق .. وأيضا سواتر ترابية ..

فجأة يحدق في أحد السواتر الترابية التي تأخذ شكل الهرم .. يهمس في نفسه :

ـ ماذا يستفيد المقاتل المصرى من هذه السواتر ؟ ..

لم ينته الى جواب شاف .. منــذ وجوده هنا وهو يرشــق السواتر الترابية بنظره الهش ولا ينتهي الى قرار .. ويعود يفكر من جديد ..

غير معقول أن يقام شيء لمجرد العبث ..

يعاود الخطى والضحكات ترتفع على الجانب الآخر .. تفضح الليل ..

لا شك أن بالجانب الآخر ذكاء..ولكنه ذكاء خبيث كالسرطان .. لابد أن يقابل هنا بذكاء مثله ..

ولابد أن يكون الانسان هنا قد تعلم من التجارب المريرة ..

قالت سميره فى آخر لقاء :

ـ أين نحن ؟ ..

ـ ماذا تعنين ؟ ..

ـ نعرف أن أمريكا ستدخل الحرب مع اسرائيل .. ما موقف الروس منا ؟ ..

ـ سؤال يشغل الجميع ..

ـ أنهينا عمل الخبراء وموقف السوفييت غير واضح ..

ابتسم معلقا :

ـ خاصة بعد سياسة الوفاق ..

ـ ما موقفنـــا ؟ ..

ـ نحن بمفردنا ..

ـ ندخل الحرب أم ننتظر ؟ ..

ـ سؤال صعب ..

ـ مضى عام الحسم ..

وضع رأسه بين كفيه وأطرق .. اعتــدل وراح يحدق في عذرائه ..

ـ كل ما أقوله أننا نتدرب .. ولابد من دخول المعركة ..

★★★

الليل والنهار يتعاقبان ·· والأيام ثقيلة متشابهة ··

المرارة تقبع في صـــدره مع ضـوء النهار ·· ونبتة القمر الموؤدة ·· ودكنة الليل ··

بقع الضوء في الحصـــون الشرقية ترقد هامدة على صفحة القناة ·· وبطرس ما زال يكتب كلمات الحب ··

شيء مبهم يضغط على الرقاب··شيء بشع يضغط ببشاعة··
كيف يحتمي الانسان من نفسه ومن حبه ؟·· شيء عسير ··
مهما كان الضغط ·· ومهما كانت النار ·· فالحب أقوى ··

حينما يخترق بصره الليل ، وتمتد نظرته بلا نهاية ، تتشكل في خياله خريطة وطن كبير ··

ساعتها يحس أنه أقوى ·· والقوة في البشر ·· وتكمن ايضا في باطن الأرض ··

يحفر بأظافره بطن التاريخ ويتأمل ··

دور لابد منه كالقدر تماما ·· لابد أن يتم اللقـاء ·· في حطين وفي عين جالوت وفي المنصورة ··

لم يهرب الناس ·· لأن الناس لا تهرب ·· فهي تؤمن بالقدر ·· وتؤمن بالحرب المفروضة ··

في خياله يهتف صوت مهيب :

ـ اعبـــر ··

لا ينتظر زورق المطاط ·· يركض فوق المـاء ·· يمرق من جحيم أحمر في لون البرتقال ··

وهناك يواجه الموت بصدره ..

تشرئب العظام الراقدة في الأرض الرملية .. تنظر من سباتها العميق .. عظام قوية شابة ملقاة بلا اهتمام في جوف يوم قديم حزين ..

من هناك ؟ .. أنت .. الانسان الواقف خلف الحصون والمزاغل .. القابع في مربض الدبابات خلف الساتر الترابي ..

ما نوعيتك ؟ ..

آدميتك ؟ ..

تكوينك ؟ ..

الذين عبروا في حرب الاستنزاف يقولون انك عادى جدا .. وتعرف الخوف ..

من يقف على أرض ليست أرضه لابد أن يشعر بالخوف ..
انهزمنا حضاريا .. هذه حقيقة .

الشيء الآخر .. ان الانسان حين تسلب حريته وتكبل يديه .. في الحرب يدافع عن حياته .. أما الأرض فلا تعنيه ..

ـ ابتعد يا ابني عن السياسة ..

هكذا يقول الأب ويستطرد في نفس الايقاع :

ـ أرجوك .. أريد أن أطمئن في غربتك ..

في الجامعة كان يسمع صدى الكلمات .. يشفق على أبيه وأمه .. ويضع النصيحة نصب عينيه ..

في المبنى الكبير .. كانت تتعرى الحقائق ..

يصم أذنيه .. ويدقق عينيه في السطور ويقرأ ..

يهرب من واقع مر ..

ولكن السطور لم تكن سوى نقطة ضوء قوية .. تفضح الواقع .. وتجلى المرارة ..

أين المهرب ؟ .. فلتكتفى اذن بدقات القلب العنيفة .. ولتوارى كل عواطفك .. وابتعد ..

ـ مصر معتقل كبير ..

هكذا يقول أستاذ جامعى صغير السن .. بعد قولته هذه اختفى ..

أين ذهب صاحب الكلمات ؟ ..

يهزه صديق من كتفه :

ـ المعتقل .. افهم ..

كان وجه الصديق يحتدم بنارية الغضب .. ومقلتاه مندآة بالدموع .. ولكن نظرته جامدة مذهولة .. وقسمات وجهه تسترخى فى بلادة .. فنصيحة أبيه يدوى صداها ..

يقول لأبيه :

ـ انى أسمع الكثير عن المصنع ..

ـ دع الملك للمالك ..

يا أبى انها البلد .. بلدى .. وبلد أولادى .. لكنه يحبس الكلمات .. يقبرها فى الصدر الغاضب ..

ـ ابتعد يا ابنى عن السياسة ..

تدوى الكلمات فى أذنيه .. وفى الجامعة تتعرى الحقائق .

الشىء الذى يحيره بالفعل .. مفهوم الحرية فى البلد ..

يقهقه الرجل الأنيق خلف مكتبه :

ـ الحـرية ..

ثم يعود يضحك .. ضحكة مرتفعة .. تصبح شيطانية .. حقيقة الحقائق .. لا حرية ..

رويدك ..

أين القضاء ؟ ..

يضحك صديق خفيف الروح :

ـ القضاء فى محنة .. شد حيلك ..

الشىء الذى لاحظه أن زوار الفجر يأتون فى جوف الليل .. تماما كالخفافيش يؤذيها ضوء النهار .. تهاب النـاس .. وفى الظلمة والصمت يتم تحطيم الانسان ..

من يفعل جرما .. فأحسن أوقاته الليل والصمت الكئيب ، والنوم القابع فى العيون ..

لم تكتظ المعتقلات ويجلد الانسان ، وتمتهن كرامته ؟ ..

هو لا يحمل ضغينة لأحد . ولكنه يحب بلده .. هذا كل جرمه ..

حين يعرف الانسان يتعذب .. وحين يحب يتعذب .. وحين يفكر يشتد العذاب ..

يضيق الصدر وتنطلق الكلمات .. مهما كانت الظلمة ..

ـ لا ..

هكذا كانت صرخته .. عريضة مؤلمة .. طول الألم ..

يرى بوضوح أخطبوطا متعدد الأذرع .. يضغط على صدره كالجبـل ..

ـ لا ··

ـ انها البلد بكل ما فيها من أمل ·· والبلد هى الانسان ··

غد قاتم يتخلق من دكنة الحاضر ··

دماء الشباب حارة تكاد تحرق العروق ··

وجوه الغد الصغيرة ، ذات القسمات الحلوة ، تهتف بالكلمات واضحة :

ـ الحرية ·· الحرية ··

ينطلق جيل الثورة ·· زرعها الأخضر ، يزيل قتامة السحب. لتظهر الشمس واضحة ويطل القمر ··

تشرئب الصدور وتحتضن الموت ··

سامحنى يا أبى ، وأنت يا أمى ·· فانى أهتف أنا الآخر ·· واطرد الخفافيش بذراعى العريان ··

تذوب نصيحة الأب ولا يبقى شىء سوى البلد ··

ـ يا عم بسيونى ··

يكاد يصرخ وسط الصخب :

ـ متى يتطهر وجه البلد يا عم ·· وتمحى بيوت العناكب ·· هنا يا عم أصل الهزيمة ·· فالحرية صرعت قبل الحرب ··

ولكن الخفافيش أقوى من النبات الأخضر ·· والصراع غير متكافىء ·· والأمل كبير ··

واليأس ترفضه الوجوه الصغيرة ·· وشفاه البنات ··

يا أهـل مصر المحروسـة ·· انا نعلن من هنا كيف تحكم البلد ·· كيف يسجن الانسان ··

الثورة فى خطر ..

يا أهل مصر المحروسة .. لا نملك سوى الكلمات .. ولكنا طليعة النور ..

ـ الحرية .. الحرية ..

يا أهل مصر المحروسة ...

الهمس الرقيق المحبوس في الصدور يتحول الى كلمات واضحة .. تتمزق فى ضوء النهار ..

ولكن الخفافيش تنشط فى الليل .. وتنسل فى القتامة ..

القبضات المحمومة تقد الوجوه الصغيرة من النعس .. والسيارات الضخمة تتوارى في الضباب ، وفى جوفها زرع الثورة الأخضر .. وأجمل الزهور المتفتحة ..

ـ أنا ابن الثورة ..

تخرج الصيحة مفعمة بالألم .. ويتعرى لتجربة ثانية قاسية ..

تهبط السياط على الأجساد الشابة .. وتنهش الكلاب اللحم الغض .. ولكن الأولاد يصرخون تحت النار :

ـ الحرية .. الحرية ..

المحنة قاسية .. ولكنه كان صلب العود ..

فى التجربة الأولى كان يجهل كل شىء .. ولكن فى تجربته الثانية يعرف من يواجه .

فى محنته الأولى فقد الوعى .. وفى محنته هذه استرد الوعى ..

عالم مخيف .. الوراء البعيد حيث ألوهية الانسان ..

ـ أنت شيوعى ..

تشير السبابة الأخرى فى اتهام قد فزع منه ..

يفتر ثغره عن بسمة خابية تطيش صواب الرجل الآخر .. يزعق فى غضب هستيرى :

ـ أنت ثورة مضادة .. أنت أى شىء ..

يعود ويرشق على ثغره بسمة هادئة .. وفى الصدر تدوى صيحة مصرى قديم :

ـ الله واحـــد ..

يلوذ بالصـمت ويحتمى بالكبرياء .. تهبط العصى فـوق الجسد المنهوك .. وتتخضب أرضية الحجرة ببقع الدم ..

ـ اعترف ..

تعود البسمة وتتمدد فوق الثغر الدامى .. يرشق الورقة الممدودة بنظرة احتقار ..

ـ نعرف الطريقة ..

تذكر سميره على الفور .. دق قلبه فى عنف .. هو يعرف اساليب المجرمين ..

الأوغاد عرفوا قصة الحب القديم ..

ـ سنأتى بها .. وساعتها توقع على الاعتراف المكتوب ..

ولكن ها هم يعودون ، والغيظ يحتـــدم فى الوجوه بحمرة قانية ..

أين ذهبت سميره ؟ ..

حتى الأهل اختفوا هم الآخرين ..

كان يعرف كل شيء ·· ففى الجحيم توجد شياطين تعرف الملل ·· وتتقزز من العمل الرتيب ··

يحس بقوة تدب في جسده الضعيف ·· لابد من مواصلة التمرد ، واعلان الرفض ··

تمددت على شفتيه بسمة ، وهو يلقى نظرة على بطرس ·· وفى خياله راحت تدق الأجراس ··

كانت سميره بملابس الراهبات جميلة ·· كوردة بيضاء ·· تحيطها أياد رقيقة حانية ··

حين انهارت المعتقلات ومادت الظلمة ، توارت الخفافيش تحت سطعة الضوء ··

خَرج ·· وقف في ضوء النهار يعب النسمات ، ويتقيأ الألم والخوف ··

ـ انها تنتظرك ··

قالت احـدى الزميلات ·· كانت بيضـاء وجههـا نحيف ، وقسماتها هادئة ، وصليب ذهبى يتدلى على الصدر ·· سـار معهـا ·· أمام باب عـريض قديم وقفت ·· دقت قبضة حديدية راقدة ·· انفتح الباب على الفور ·· هى ذى سميره بثياب راهبة ·· احتواها فى صـدره ·· بينما الأجراس تدق ·· وفى الداخل ترتفع أصوات صلاة ··

كان وجهه شاحبا ·· خرج من الموت منذ لحظات ·· دثروه بالأكفان ·· ولكن فى جسده نبضة حياة ·· مجرد خفقة ·· تراجعت مع روحه ·· سقطت فى الهمود ·· ولكن مع ضوء النهار ينهض ·· ومع سطعة الضـوء تزعق الخفافيش زعقـة الخوف ·· تهرب من الخرائب ·· راح ينزع بيديه القيود ·· خرج هزيلا ···

كانت شمس مايو صافية ·· لا سحابة البتة ·· والزرقة لا تعكرها شائبة ·· الرقاب الممدودة فى الصلف وبريق العيون المجنونة ·· كل هذا احتراق ·· طواها نتن الذنوب ··

أين السلطة العمياء ، وأنصاف الآلهة ·· سقطوا كثمار فجة تحت صفع الريح ·

من فوق القمم الثلجية انحدروا فى عويل :

ـ ماذا فعلوا بك ؟ ··

تقول سميره وقسمات الوجه تميد تحت ثقل الألم :

ـ صهرونى فى النار ·· أكلوا من صدرى الخوف ·· عرفت أننى قوى ·· وأننى أهدد وجودهم ·· كنت أزعق : أنا ابن الثورة ·· فيقابلوا الكلمات بضحكة متشنجة ·· تسلوا بقطع اللحم الساقط من جسدى ·· ولكن الحرية تتدفق من مواقد النار ·· ودائما تنتصر ··

كان الغضب يتدفق فى الصدر · ولكن بسمة مشرقة تمددت على ثغره · تشع بضوء فسفورى ·· أردف :

ـ ولكن قصى على قصتك أيتها الراهبة ·

ـ عرفت الحقيقة فهربت · كانوا سيساوموك على عرضى ·· رحت أدق باب الدير ·· فتحوا من غير سؤال ·· قلت لهم فى الخارج عصر الشهداء ·· دثرونى بثيابهم ·· وصرت أصغر راهبة كما ترى ·· أهرب من الماضى وأبارك الغد ··

بأصابعها تتحسس وجهه وتستطرد :

ـ وجهك شاحب ··

ـ صفرة الموت ··

ـ تعذبت يا حبيبى ؟ ..

ـ هناك يكون الليل بلا حدود .. يختلط الليل بالنهار .. كل اللحظات تصبح رهيبة .. ولكن بذرة الحب تكبر .. وتورق الأغصان .. ويصبح الموت غاية ..

ـ لم يعذبونا ؟ ..

ـ لأننا نتاج الثورة .. نتاج المبادىء الستة وكل البيانات .. ولكن الواقع مر .. وهنا يكون السؤال .. ويكون الجلد ونهش الكلاب .. جنوح السلطة مرض .. تماما كالجنون ..

تعطيه كفها الصغير .. يضغط بقبضته فى عناق .. تدق الخطى فوق الطريق .. وعلى الشفاه الجافة ترقد بسمة .. ولكن الجسدين هزيلان .. يبدوان كشبحين ..

الهواء الجديد يمرق فى الصدور .. يصلح الأشياء المتهدمة .. يحسان بالحب يحتوى كل الأرض السمراء .. يغوص فى الجوف .. يحتوى الفضاء الأزرق ، والخضرة الممتدة بلا حدود ..

الحياة تلقى ثوبها القديم .. ونسمات مايو تسرى خالية من ذرات الخوف ..

تأخذه أمه فى الصدر الشائخ .. تهبط بثغرها وتلثم وجهه ..

ـ يا عزيز عينى ..

تهطل الدموع على وجنتيها ..

يحتضنه أبوه ويجهش بالبكاء .. تنزلق دموعه وتبلل لحيته المختلطة بالبياض :

ـ لو تعلم كيف كانت الأيام ..

يتوارى الألم فى الصدور •• ويبقى سحر اللقاء ••
يسدد نظرته •• المداخن الطويلة تعانق الأفق وتقبل الفضاء
•• ولكن تحت المداخن الطويلة تعانق الأفق وتقبل الفضاء
بطرس ما زال يكتب كلمات الحب ••
الله محبـــة ••
هكذا يختم رسالته ••

من القرية يضرب العم بسيونى كفا بكف :
– لم يا ابنى فعلوا بك هذا ؟ ••

احتوته الخالة زهرة فى صدرها ••
– ربنا على الظالم ••

فوق السـطوح تحت القمراية تمدد •• ينظر الى الفضـاء الرحب •• ويتأمل القمر •• يستوعب البلد فى عينيه •• ويحس بالجمال يتدفق فى وجدانه ••
كم يحب البلد ••••

ترتفع الفأس فى يد فلاح •• ينحنى الظهر وتهبط الفأس على وجه الأرض •• تتحدى الموت ••

ينثر العرق على الجبين المترب المحروق بقرص الشمس •• ينزلق فى خطوط الرقبة الطولية •• هكذا الانسان فى بر مصر •• دؤوب فى صمت •• ولكنه فى النهاية يصل ••

فى رقدته يعب الهواء الجديد •• يملأ عينيه بضـــوء القمر اللبنى •• ولكن تصفع أنفه رائحة العفن •• تأتى مقززة من ناحية الشرق •• حيث الأقدام الثقيلة الضاغطة فوق الصدور ••

تنقطع خواطره ويسدد نظره على الساتر الترابى فى الغرب •• ويعجب •• يثور فى نفسه عين السؤال •• مبتور من اجابة محدودة ••

يقول بطرس ذات نهار :

ـ ألا تحس بشيء ؟ ..

يومىء برأسه :

ـ فعلا ..

ـ ألا ترى الجمود يهتز ؟ ..

ـ هزات عنيفة ..

ـ لن تموت القضية ..

ـ أبدا ..

ـ حركوها أقصى ما تكون الحركة السياسية ..

ـ أنت لماح ..

وضحك ..

ولكن لا تخلو القلوب من قطرات اليأس .. تهبط مع ضوء النهار .. تتحدى الشمس .. تتساقط مع الليل .. وتخضب وجه القمر بغلالة حزينة ..

تقول أمه :

ـ ماذا يفعل الرجل ؟ ورث تركة مثقلة بالديون ..

لا يفقد ثوريته مهما كانت الأحداث .. مهما تجمعت السحب الداكنة .. فثوريته ضرورة كالحياة ..

يخطأ حفنة من البشر .. ولكن المبدأ يظل طاهرا ..

متى يصبح وجه البلد طاهرا رائعا .. يمتد بالخضرة والمداخن .. ولكل طفل كتاب .. وثوب جديد .. وبسمة تحمل أعز أمل .. وينطلق الانسان الحر يضرب الأرض بخطاه .. يبذل العرق ويتكلم بحرية ؟ ..

حينئذ تكون الحياة رائعة ‥ وتكون الثمرة فى أوج النضوح ‥ ويبدو الغد الوليد فى ذروة الأفق أكثر روعة ‥

فى القرية تنخفض رقبة العم بسيونى . يقبع فى الصمت . يبدو ساهما مهوما ‥

ـ ما بك يا عم ؟ ‥

يرفع الرجل العنق المنخفض ويهمس :

ـ لا أدرى ‥

العجوز يغرق فى التيه ‥ يشرد ‥ يذهب بعيدا بفكره . بخواطره ‥ ويرين الألم فى النظرة الضيقة ‥ وخطوط الرقبة الطولية ‥

ولكن هناك أشياء تتم فى الخفاء ‥ تتم فى عنف ‥ ليل نهار ‥ جهد شاق يفوق قدرة الانسان ‥ فلابد من العبور ‥

حين رشف كوب الليمون المثلج ‥ سدد اليها نظرة حب ‥ لم يستطع مواجهة النظرة فتكسرت الأجفان ‥ أخيرا تحقق الأمل ‥ وضع فى أصبعها حلقة الذهب ‥ وسط الصخب والزغاريد انسل بها ‥ كانت ليلة صيف ‥ والقمر يلقى أشعته على الكون ‥

والنسمات جميلة تربت عليها فى حنو ‥

ـ سميره ‥ لم يبق سوى المعركة ‥

ـ سأنتظرك ‥

انسل من خاطره وراح يلوك اللقمة ‥ قال بطرس :

ـ ألم تلاحظ شيئا ؟ ‥

ـ أى شىء ؟ ‥

- هناك حركة ..
- متى ننطلق ؟ ..
- أحس بالأمر يصدر ..
- نفس الاحساس .. العبور كالقدر ..
- أنت قلت ..
- كيف تتخيل الانسان الاسرائيلي ؟ ..
- ما يقال عنه أكبر من حجمه .. يتجنب المواجهة .. امكانياته عريضة .. لم ينتصر في ٦٧ لأننا لم نحارب .. تعوزنا فرصة حرب ..
- العالم لا يسمع سوى صوت الرصاص ..
- هكذا الصم ..
- الصوت السياسي يبدو كاستغاثة جوفاء ..
- للسلام طريق واحد .. الدم ..
- نعم .. لكي تصل الى السلام لابد أن تحارب ..
- ألا تحس بتمزق ؟ ..
- انى أتألم ..
- ولكن ثق أن اليأس بعيد ..
- من يفسر الألم باليأس يخطأ ..
- متى نعود ؟ ..

يزفر هو الآخر ويردد :

- نعم .. متى نعود ؟ ..

يسدد بطرس نظرة في الأفق الغربي :

- تيريزا تنتظر ..
- وكذلك سميره ..
- وتيريزا في كل مكان ..

ـ وسميره فى كل مكان ..

يقول بطرس ، وعلى فمه تستلقى بسمة مكدودة :
أتحبها ؟ ..

ـ كلمة الحب لا تكفى ..
ـ لهذا الحد ؟ ..

ـ أكثر من كل الحدود ..

يغرق فى الخيــال الوردى .. يراها .. تشرق فى عينيه كشمس الصبح .. جميلة كأى زهرة .. ينسى السواتر الترابية والحصون .. يأخذ يدها ويحتضننا الحياة .

يضمها مساء ناعم .. ويحبو طفل صغير ..

ولكن لم يعود ألم الظهر القديم .. وهو يوشك أن ينسى الأشياء البشعة ..

ايمانه مطلق بوجود الله .. وبالعدل الالهى ..
يقول لأبيه :

ـ أنت مظلوم ..

يتنهد الرجل ويتمتم :

ـ الحمد لله ..

تعبث أصابعه بحبات المسبحة الطويلة ..

ـ لم لا تشكو ؟ ..
ـ لمن ؟ ..
ـ لرئيس مجلس الادارة ..
ـ تحول الشكوى لرئيسى المباشر .. انى أشكو القــاضى نفسه ..

السكون على الظلم كفر··الدين ثورة··ولكنه آثر الصمت وانصرف ··

الحياة عرق متصل ·· هذه عقيدته ·· وكلمة حرة تمتزج بقطرة عرق ، توصل الى هدف نبيل ·· رقى الانسان ·· والانسان هنا عظيم ·· تعوزه الفرصة ، ليلحق بصاروخ الحضارة ·· لا يأتى التقــدم بقوة غاشمة عمياء ·· ولكن بثورة علمية تسـطع فى وضـوح ··

آه ·· تحت المداخن يقبع العفن ·· وتفوح نفس الرائحة من خضرة الريف ، تزكم الأنوف ··

يربط بين السواتر الترابية والعفن ·· شىء واحــد يدعو للتقزز والغثيان ··

ـ تكلم يا عم بسيونى ··
ـ لا اله الا الله ··
ـ صامت أنت هذه الأيام ··
ـ حسبى الله ··
ـ ألا تثق فى الأمل ؟ ··
ـ انى أثق في الله ··
ـ سنحارب ·· ثق من ذلك ··

ترتفع الرقبــة المغضـونة ·· يرشقه العجوز بنظرة تبرق بومضة أمل ··

ـ البركة فيكم ··
ـ كلنا نريد أن نضحى ··
ـ لابد من التضحية ··
ـ لا تيأس ··

ـ من يعرف الله لا يعرف اليأس ..

ـ سنعبر ..

ـ باذن الله ..

يسـيران فى القمراية .. تعود للعجـوز طلاقة اللسان .. يضحك فى هدأة الليل :

ـ وكتاب الله .. لا أبخل بروحى للبلد ..

يمرق طائر الكروان .. يردد تسبيحته الخالدة .. يردد العم فى همس :

ـ ونعم بالله ..

تقول الخالة زهرة وقد ذوى عودها .. والوجه أصبح ضاربا فى سمرة الطين :

ـ كيف حالك ؟ ..

كانت تسند الفأس فوق الكتف العظمى ..

ـ الى أين ذاهبة ؟ ..

ـ الى الأرض ..

ذهب الأولاد الى الجبهة .. والأرض لابد أن تنبت .. والعجوز لن تترك الأرض ..

ـ الحال على ما يرام .. ثقى أننا سنضرب ..

ـ كله بأمر الله ..

لا يلمح على الوجه الهضيم خلط اليأس .. ولكن يرين على الوجه ضيق : فالأقدام الثقيلة تجثم على الصدور ..

تسير سميره ملتصقة به .. أسنانها تصطك .. ليلة باردة وهواء ثلجى .. قال لها :

ـ سنحارب ·· بمفردنا ·· ليس لنا سوى طريق واحد : أن نمحو العار ··

كانا يتحدثان على الطريق فى ليلة باردة ثلجية ·· لم تكن هناك أشباح تمرق بجوارهما ·· بالسرعة المفتعلة ·· والعيون التى كانت تبرق اختفت تماما ··

كانا يتكلمان بوضوح ·· بصوت عادى ·· بعيد عن الخوف ·· يستطرد بعد هنيهة صمت :

ـ كيف ستأتى ضربتنا ؟ · ذلك ما أريد أن أتخيله ··

يحسان بالضباب الساقط · وتصعب الرؤيا ··

حين تزل القدم ينهار الانسان ·· ولكن حتما سينهض ·· قد يطول الزمن ··

تنهد وطرد خاطره ·· فهو لا يريد أن يطول الزمن ··

ماذا تعنى الثورة ؟ التغيير ·· الوصول الى الجذور فى أسرع وقت ·· كثرة خضره وكثرة مداخن ·· بالعرق والجهد ·· يبقى الانسان شامخا ·· لأن الثورة هى الانسان ·· والانسان هو الوطن ··

ـ أنا ابن الثورة ··

يواصل صيحته تحت قسوة الضربات ··

نفس الصرخة كان يسمعها فى الحجرات المجاورة ·· تعلو فوق السباب والضربات ونباح الكلاب ··

يقول أبوه :

ـ ثق ان الثورة هى التى صنعتك ·· لم تكن عندى أى فكرة عن تعليمك ·· اننى بدأت من العدم ·· كنا نجوع هنا ونتعرى ··

من كان يقرأ ، مجرد قراءة ، كان شيئا آخر ·· هو ذا أنت تتخرج من الجامعة ·· لست وحـدك ·· الجامعة تموج بأبنـــاء الفلاحين والعمال ·· اختفت طبقة قديمة كانت تحتكر العلم ·· أصبح العلم الآن حول السواقى ·· وفى بيوت العمال ·· وعلى امتداد الجبهة ·· لم يكن هناك غير أبناء الفلاحين والعمال ·· زرع الثورة الأخضر·· من غيرهم يستوعب تكنولوجيا السلاح ·· ويواجه انسانا تعتمد حياته على فوهة بندقية ؟ ··

هنا يكون التحدى··ولكن بنظرة بسيطة على الجانب الشرقى، تظهر امكانيات كبيرة ·· وقوة هائلة ··

آه ·· على أى شىء تعتمد ؟ ··

سؤال حائر··ولكنه يدوى فى رأسه··فلابد أن يستوعب موقف بلده ويستوعب اللحظة التى يعيش فيها ··

يقول العجوز عم بسيونى :

ـ لا تنسى الله ··

فى الحرب الأخـيرة ·· كانت الكلمات متخمة بالغرور ·· ليست على مستوى القدرة ·

لقد نسينا الله ·· تماما كما يقول العم بسيونى ·

الرجل العجوز لم يتخرج من جامعة ·· لا يعرف القراءة أو الكتابة ·· ولكنه تجربة عريضة ·· وأيام ضاربة فى جوف الزمن ·· ولم يتأخر مرة عن صلاة الفجر ··

قال أبوه تعليقا على الهزيمة :

ـ أعجبتنا كثرتنا فنسينا الله ··

الايمـان هو الركيزة الأولى فى المعركة ·· وهو مضـمون الانسان فى بر مصر ··

هل تحارب أمريكا مع اسرائيل ؟

يخطىء من يظن أن بين الاثنين صـداقة ‥ ولكنها تبعيـة كاملة ‥

هل ممكن أن نكون فيتنام أخرى ؟

فى منطق الدمار كل شىء جائز ‥

نرفض التبعية ‥ ونعرف كيف تكون صداقة الشعوب ‥

المحزن أن صديقنا ينصح بعدم الدخول فى معركة ، خاصـة بعد امتداد يد الوفاق‥ومصافحة الجانب الآخر فى ضغطة قوية‥

يعود صوت العم بسيونى يدوى فى أذنيه :

ـ لا ننسى الله ‥

يتمتم هو الآخر بكلمات هامسة : هذه هى الركيزة الأولى ‥

فى الجانب الآخر ‥ يقف الرجل خلو من عاطفة جياشة ‥ شعور بالعار يجب أن يزول ‥ كرامة يجب أن تسترد ‥

لا مفر من مقابلة القوة بالقوة ‥

كانت أيام رمضان هادئة ‥ لم تخل من التـدريب ‥ كل عملية تتم بلا حماس وبلا ضـجة ‥ كل فرد استوعب السـلاح وينتظر القرار ‥

يقف جندى على مرتفع صغير يؤذن ‥ وضوء الغروب ينزلق تماما فى الهوة :

ـ الله أكبر ‥ الله أكبر ‥

تكبيرة تتردد فى كل الجهات ‥ وفى كل مكان ‥

يكاد يصرخ بكل قواه :

أيها العرب ‥ اتحدوا ‥ أنتم قوة كبيرة ‥ وهـذا سر العدوان ‥

أيها العرب توجد قطعة لحم غريبة في الجسد ‥ انتبهوا ‥ ستزحف قطعة اللحم وتصبح هي الجسد ‥

يتنهد بزفرة ألم ‥ المحن تحرق الأشياء العفنة ، ولا تبقي سوى الأشياء الطيبة ‥ فهي دائما خالدة ‥

ما أبشع الحرب ‥ صورة سريالية يرسمها الانسـان في لحظة جنون ‥ وآثار الخراب مذهلة ‥ ولكن لكي تمنع الحرب لابد أن تحارب ‥ بالقدر الذي يعيد السلام ‥

هو لا يدري ما به هذا الصباح ‥ شعور غريب ولكنه طيب ‥ منذ خيوط الفجر البيضاء ‥

يضحك مع بطرس ‥ يناقشه في رقدة المسيح على الصليب ‥ كما يقول الانجيل ‥

ـ بطرس ‥ هل كان الموقف ضعف ؟ ‥

ـ أبدا ‥ كان الموت بداية ‥ بداية وجود وحياة ‥ ومع كثرة الصلبان والدم النازف انتشرت المسيحية ‥

في الصبح صدر الأمر :

ـ ارتداء ملابس الميدان ‥

كانت دقات قلبه عنيفة ‥ لا يدري لم ؟ ‥ رمقه بطـرس بنظرة ذات معنى ‥ نظرة قوية فيها اصرار ‥

يتدفق في صدره احساس غريب ‥

كان القائد يقف في صلابة ‥ على قسمات الوجه شيء مبهم ‥ ولكنه قوي ‥

كل الأشياء حوله تهمس .. همسات تشى بشىء منتظر ..

كان الليل الطويل يرين على الوجـوه السمر .. ولكن فى الظهيرة بدأ يذوب .. تتداعى فى رأسه أشياء كثيرة .. تنحدر فى قوة ..

سميره تمد ذراعيها تتلقاه .. يسمع صوتها واضحا ..

ـ سانتظرك ..

أمه تهبط بشفتيها تطبع على خده قبلتها المعتادة ..

أبوه يشد على يده فى ضغطة قوية .. ويسكب فى عينيه نظرة رجولة .

العم بسيونى يضحك ملء شفتيه ..

والخالة زهرة ترفع الفأس بالذراع النحيلة ..

يتابع بنظره الطائر المحلق فى الفضاء .. يضرب بجناحيه ناحية الشرق .. يصرخ عند الساتر الترابى .. يعود الى الغرب ويوغل فى الطيران ..

يسبح أحد الجنود فى القناة .. آخر يمتص عود قصب فى استرخاء ، بينما ساقه غاطسة فى الماء ..

ينظر حوله ويحس بتناقض بين الساق الغاطسة ، وقسمات القائد الموغلة فى الصرامة ..

هناك .. فى الحقول .. يتحرك الزرع الأخضر فى ريبة ..

تزداد دقات قلبه وتشتد الضربات ..

يأتى صوت العم بسيونى من القرية البعيدة :

ـ لا ننسى الله .

يسدد نظرته على بطرس ‥ يرى فى مقلتيه الأجراس ‥ وتريزا من يديها يصدر الصوت ‥

يغوص فى قسمات الوجوه حوله ‥ يدرك بحاسة مرهفة ان اللحظة تقترب ‥

الآن يفهم معنى السواتر فى الغرب ‥ بالأمس كانت تقف فى بله ‥ ولكن هذه اللحظة لها منطق قوى ‥ فخلفها تتوارى الوجوه السمر ‥

تيريزا ياخطيبة بطـرس دقى أجراس كنيستك ‥ ترتفع هنا تكبيرة ‥ تصعد من جوف التاريخ ‥

كان يحمل سلاحه ‥ وقنابل يدوية ‥ ولصاروخ ‥ وقليل من الطعام فوق رأسه ‥

تمرق طائرات كثيرة منخفضة ‥ تتجه ناحية الشرق ‥

تستعر الدهشة فى عينيه ‥ وتطغى دقات قلبه على كل الأشياء ‥ ويمر فى رأسه خطر الموت ‥

بدأت المدفعية تهدر ‥ ولكن صوت القائد كان واضحا ‥

ـ أعبـــر ‥

وكانت الكلمـــة ‥

***

من الحقول الخلفية الخضراء ·· من الشجر ·· من وراء السواتر الترابية يظهر الرجال السمر ·· يمشون على الأقدام ·· خطى صلبة تدق وجه الأرض ··

تعـلو تكبيرة ··

ـ الله أكبر ··

ما أروع اللقاء مع الموت ··

فى لحظة خاطفة تمتلىء صفحة القناة الزرقاء بزوارق المطاط··

لم ينتظر بطرس دوره وعبر سابحا ··

تبدأ سيمفونية عريضـة ·· يصنعها الرجال السمر ·· وتكبيرة عالية ··

الخـوف يصخب فى صدره لحظـة ·· ثم يذوب فى الأقدام الملهوفة ··

وصليب بطرس يستقر فوق الصدر العريان ··

لم يبق فى رأسه سوى قهر العار ·· وزعقة الأنا القوية فى الصـدر ··

ما أروع ما يراه ··

جهد الرجال يصنع التاريخ للوصول الى الأهداف ·· ويطل الزمان يتأمل ··

تنهمر الطلقـات من المزاغل وتتحرك الحصـون ·· تعـلو التكبيرة ·· وتلتف الأصابع حول الحبال تصر على الصعود ···

كان فى المزغل مدفع قوى ·· ولكن هو ذا رجل يسده بجسده الضخم ، لتمر البقية ·· يسقط والتكبيرة فى فمه ··

الرجال يستوعبون اللحظة ·· وكل يعرف ما يفعله ·· يعرفه منذ سنين ·· فالسيمفونية العريضة بلا نشاز ··

ـ الله أكبر ··

القائد يتسلق الحبل بجواره ·· يربت على ظهره ··

ـ بالتوفيق ··

ترتسم على الشفاه بسمة مشرقة ··

يا أبناء الفلاحين ··

يا أبناء العمال ··

يا طهارة الثورة ·· ما أروعكم ··

السيقان ترتفع ·· والوجوه الصلبة تزعق ·· يصعدون السواتر الترابية ·· والأقدام تقفز بالفعل على أرض سيناء ··

وقصف مدفعيتنا يضرب من الخلف ··

الأقدام تجرى وتلتف حول الحصون ·· وأقدام أخرى تتجه ناحية الشرق وتوغل ··

على الرجال المشاه يقع العبء ··

عبء تحطيم الحصون ··

ومواجهة الدبابات ··

ما أروع الانسان حين يحس بمضمون الحياة ·· ما أروع الموت هنا ··

أنشودة الرجال والرقص على ايقاع الرصاص المستمر ··

هو ذا حصن يشتعل ..

وتعـلو تكبيرة ..

يتناول الصاروخ ويصوبه فى الدبابة .. تحترق بمن فيها.. وتفوح رائحة اللحم البشرى ..

بطرس يقف أعلا الحصن .. ويضع العلم .. يعلو صوته ..

ـ الله أكبر .. صيحة الشرق الموغلة فى التاريخ ..

وتيريزا فى عمق الغرب تدق الأجراس ..

الآن .. ماذا يقول الرجل العجوز .. العم بسيونى ؟ ..

ليس هنا بطل .. هنا بطولة يصنعها الكل ..

الرصاص ينهمر .. وتسـقط أجسـاد .. ولكنها الأرض والكرامة ..

صوت الدبابات يزعق خلفه ..

ايزيس تقبل من ناحية الصحراء الممتدة .. تحمل الجسـد الممزق .. وعلى ثغرها شبح بسمة :

ـ يا أولادى ..

يمرق صوت الرجل الأسمر صاحب القرار ..

يقفز من فوق السور..ظهر الرجال الأربعة أمامه يحتضنون المدافع والفوهات تهدر من المزاغل بجنون .. يقول بالعبرية :

ـ ارفع يدك ..

فى قبضته قنبلة ..

الفزع يشل الرجال .. ينحنى رجل على كتفه نجمة داود .. كان يتكلم بخوف وهستيريا :

ـ لا تقتلني يا مصرى ..

تأمل العينين الزرقاوين وخصلة الشعر الصفراء .. نبتة غريبة لا توجد في بطن الأرض الشرقية ..

يا أولاد الأفاعى .. ما الذى أتى بكم ؟ ..

الرجال القابعون في الحصون يحاربون بضراوة ..

ـ انهض ..

لا يريد قتل الحياة .. ولكن يريد تحطيم قوة العدو ..

عندما أتى الليل كان كل شيء يتم بنجاح..وتنتهى أسطورة بارليف .. المعركة كانت ضارية..وصلت لحد التلاحم واستخدام السلاح الأبيض ..

ولكن هناك سلاح جديد في المعركة : الانسان نفسه .. فالسلاح بالرجل ..

كان العلم المرفوع يحتضن النسمات .. والنجوم تلمع فى قبة السماء الزرقاوية .. يقف عاليا بجوار بطرس ..

القمر المبكر ينير الأرض العريضة ، ويسكب فضته على صفحة القناه ..

الغريب أن الطائر راح يحوم في الشرق .. ولكن هذه المرة أوغل فى سيناء .. كان يمد بصره في الشرق .. وصوت حريق المدرعات يصل الى سمعه فى هدأة الليل ..

يا للرجال الذين يمشون على الأقدام ..

الرجل يواجه الدبابة بصدره ..

يقول بطرس :

ـ هل تصدق ·· الرجل يحطم خمس وست دبابات ·· آكله ·· آكله دبابات ··

يضحك ثم يهمس فى ضوء القمر :

ـ تغيرنا ··

ـ كل شيء سيتغير ··

كانت النيران ترتفع من احدى الدشم ، وتفوح رائحة اللحم البشرى ··

ما أبشع الحرب ··

ولكنها ضرورة فرضها العدو ··

ـ بطـرس ··

يقول فى صوت خفيض ··

يلتفت بطرس ·· يردف بهمسته :

ـ ستعود ··

ـ نعم سنعود ·· ذلك منطق الأشياء ··

يحس فى صدره بتدفق الحياة ·· ويشعر بوجوده ·· امتداد لا نهائى ··

يرى أمه تدعو على حصيرة الصلاة ··

والعم بسيونى ينصت فى اهتمام ··

كيف عبروا ·· كيف صعدوا ·· كيف حطموا ؟ ··

المشاه يا عم واجهوا الموت بالصدور ··

الرجل يجـرى خلف الدبابة ·· ويقف أمامها ·· يحطمها

بصاروخه .. الآن يا عم .. كل القوى تتحرك .. فالرصاص يلوى الرقاب ..

ـ أتسمع ؟ ..

يرهف السمع .. ينصت مع بطرس ..

فى بطن سيناء تدوى أصوات الصواريخ ..

الرجال المشاه يمنعون تقدم العدو .. للآن لم يصل شيء . المكان هادىء .. والقمر معلق فى رومانسية .. وضحكة ترتفع من حصن مجاور .. وغنوة من الصعيد ..

فى الظهيرة كانت الطائرات تسقط كالفراش ..

راح يستعيد في خياله لحظة التاريخ .. العبور .. زوارق المطـاط ..

الرجال السمر يتسلقون الحبال .. ويتهاوى الساتر الترابى أمام مضخة الماء ..

الهجوم على الحصون .. مقابلة الموت بالصدور .. يسقط من يسقط .. ويستمر الزحف الكبير ..

تهب النسـمات من الغـرب .. وتأتى من الشرق ساخنة يتلقاها بجسده .. يعبها فى صدره .. ولكن تأتى مع النسمات رائحة عفن باهتة .. هناك فى القرية وتحت المدافن .. يكاد يرى سميره بعين خياله .. تقف فى الشرفة ويطل عليها نفس القمر .. ثوبها الأزرق الخفيف ينثنى مع ربتة الريح .. وصدرها يرتفع عن تنهيدة يسقط معها حمل ثقيل ..

ولكن فى عينيها يقبع الخوف .. وتستعر الدهشة .. تخاف من خطوات الموت .. فالعبور كان مباغت ..

صـوت العم بسيونى ينسـل من القمـراية •• ويأتى من بعيـد ••

ـ لا تنس الله •

فى الظهيرة كانت تكبيرة الرجال تحتوى الكون •• لم تكن مرتبة •• كيف انطلقت ؟ ••

لا تسالنى أيها العجوز •• كل ما أستطيع أن أقوله : ما كان فى صدرك كان فى صدر الرجال ••

حين آكون حرا فبلدى حرة •• هذه محصلة التجربة ••

ـ سنعود ••

يهمس بطرس مع الليل •• تتمدد على الثغر بسمة تضىء الوجه المترب ••

ـ لم تنته المعركة ••

ـ المقدمات تؤدى الى النتائج ••

ملأ رئتيه بالنسمات •• أحس بحنين شديد للحياة ، ورغبة آكيدة فى لقاء الموت •• وليصبح أجمل ذكرى فى حياة سميره •• دمعة واهنة فى غد الأولاد الصغار •• من يدرى •• ربما نجمعهم ذات مساء ونقص عليهم الحدوتة كاملة ••

كان ياما كان •• كان هناك شاب اسمه الشاطر ••

ـ اجمع ••

يقول القائد وقسمات وجهه هادئة متربة ••

ينسل من خواطره •• يحس نحو القـائد بحب شديد •• هذا الرجل يحب بلده ••

يهمس أحد الجنود :

ـ تزوج قبل المعركة بأيام ··

ـ وترك عروسه ؟ ··

ـ وترك عروسه ··

صوب الشمال ·· بعد مسيرة طويلة على الأقدام ·· كان كل رجل يعرف دوره ··

ـ الزموا الصمت في الحفر ·· لابد أن نأخذهم بالأحضان·· تذكروا هذا جيدا ·· لابد أن نأخذهم بالأحضان ··

كان اللواء الاسرائيلى يهـدر من بعيـــد ·· يطحن الأرض بالصلف ··

الرجال فى الحفر يملكون الصواريخ ·· والشجاعة ··

دخل اللواء بكل غروره ·· وداس على بعض الحفر ·· أصبح فى أحضان الصدور النارية ··

يقفز المشاه من الحفر وتنهال الصواريخ · يزعق الديناصور الحديدى زعقة النار والألم :

يا أبنــاء الفلاحين ··

يا أبنــاء العمـــال ··

يا نقاء الثورة ·· ما أروعكم ··

ضحوا ·· لا تجعلوا أحـــدا يفلت ·· هى ذى الدبابات تحترق ·· ويحترق الجندى الأسطورة ··

ما أروع حبات الرمل وهى تتلقى الأجساد المغمورة ··

وقطرات دمائنا من أجل السلام ··

هو ذا بطرس يسقط ..

– بطـرس ..

يزعق زعقة الخوف .. يتحسس صدره .. يتلقى باللزوجة الساخنة ..

يهمس بطرس بكلمات تميد تحت الألم .. والصليب الذهبى مخضب باللون القانى .. ثم تهبط الأجفان فى تؤده ..

يقول الطبيب فى مستشفى الميدان ..

– لا تخف .. سينهض بعد أيام .. النزف أثر عليه ..

يضحك ويواصل الكلمات :

– تريدون تحطيم لواء ٩٠ بدون خسائر ؟ ..

يقول بطرس بالهمس الخفيض :

– ان مت فأعد هذا لتيريزا ..

تمتد يده بالصليب ..

يبتسم ويسدد له نظرة نفى :

– لن تموت .. صليبك فى انتظارك ..

تنفرج شفتا بطرس عن بسمة باهتة يخنقها الألم ..

يلتقى بالفضاء العريض .. يصل الى سمعه صوت المدرعات وهى تحترق .. وخوار الدبابات المحتضرة .. تزداد قبضته على الصليب ..

يقول القـائد :

– عبرت مدرعاتنا ، وأسلحتنا الثقيلة .. نجنح المشاه ..

انكم تسجلون معركة غريبة ·· والآن الى العمق يا أولاد ·· هناك شيء سنأخذه بالأحضان ··

سار الرجل الأسمر ··

والفضاء أمامه متسع ·· وارجل الرجال تضرب الأرض ·· وسواعد قوية تحمل السلاح ·· وصدور عريضة تشرئب فى ثقة ·· مرحبا بالموت ·· قضية لا يملكها سوى الله ··

كان الليل يحتضن الأفق ·· ولكن ضوء القمر يمزق الملاءة السمراء ··

يحس بهواء جديد يمرق فى رئتيه ·· يرشق القمر بنظرة ·· هناك وجه سميره ·· تستلقى على شفتيها بسمة أمل ··

لن يخفت الحب فى صخب الرصاص واللهب ··

وبذرة الحياة رائعة وسط الرعب ··

الرجال السمر يمشون على الأقدام ·· ويطحنون حبات الرمل ··

بين السواعد والصدور ·· تقبع الأعضاء الدافئة ·· تطهر العار ··

وأسطورة كاذبة تصبح قبضة ريح ·· وفى الأحضان الدافئة يقبع أمل ، وغد مشرق ··

أيها الرجال ·· الحرية تتدفق من مواقد اللهب ··

ستنثنى بعض السوق حين تصد طلقات الرصاص··وتتمزق بعض الصدور ·· وتتخضب حبات الرمل بالموت ·· ولكن ·· ما أروع الحياة ··

يناير ١٩٧٥

جمهورية مصر العربية

مطبـوعات

المجلس الأعلى للثقافة

٢٦١

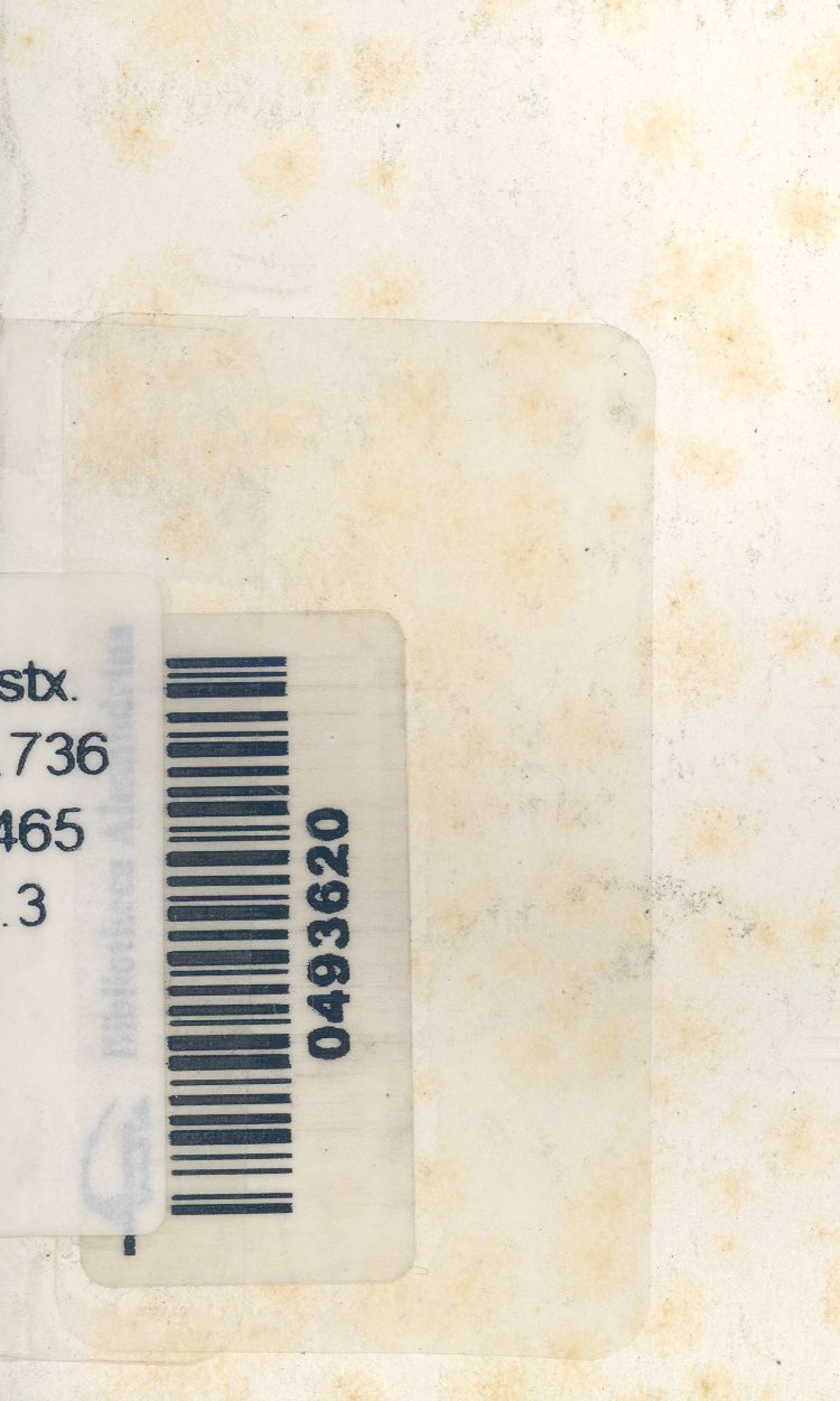
القـاهرة

١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٨٣ /

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٦٧ ـ ٢


stx.
.736
465
.3
04993620